رواية

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

عالِم الآثار

تأليف : فيليب بوسان
ترجمة : كريستين يوسف
تقديم : إدوار الخراط

325

عالِم الآثار

(رواية)

تأليف : فيليپ بوسان

ترجمة : كريستين يوسف

تقديم : إدوار الخراط

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٢٥
- عالم الآثار (رواية)
- فيليب بوسان
- كريستين يوسف
- إدوات الخراط
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 73528084 E. Mail : asfour @ onebox. com

مقدمة

بقلم إدوار الخراط

نهضت كريستين يوسف إسكندر بعبء ترجمة هذه الرواية التى أعتبرها من أجمل الروايات وأنقاها فلسفياً .

وليست الرواية القائمة على رؤية فلسفية إلا عملاً شائقًا ومثيراً للوجدان وحافزًا للتفكير ، وإنما توفيقها يتأتى من المقدرة التى لاتعوز رواية فيليب بوسان على سرد حكايات يمكن أن تعتبر – على مستوى معين – مشوقة وجذابة وقادرة على استثارة فضول القارئ لمعرفة « ماذا حدث ؟ » و« ماذا سوف يحدث ؟ » فضلاً عن أنها – على مستوى آخر – قادرة على حفز التأمل فى القضايا الإنسانية الكبرى التى طالما شغلت وستظل تشغل عقول المفكرين ، كما تشغل – فى الوقت نفسه – هموم صغار الناس وعامّتهم ، حتى إن لم يكن فى مقدورهم أن يكسبوها صياغة فنية أو فلسفية .

هذه رواية تقيم تقابلاً أو تواجهًا بين نقيضين ، من ناحية الخلفية السردية القصصية ، ومن ناحية الرؤية الفكرية على السواء .

ففى الخلفية الروائية نجد كمبوديا وجزيرة بالى وأحراش آسيا وأدغالها من ناحية ، ونجد الصحراء المصرية فى النوبة ورمالها الجرداء وصخورها الوعرة ، والنيل الذى يشقها بعيداً عن ساحة الفعل الروائى كأنه غريب عنها ، من ناحية أخرى .

هناك الغابة الآسيوية الاستوائية بكل عراقة حيويتها وفيض خصوبتها إلى حدّ العطن ، وازدحامها بل احتشادها بتدفق الحياة الوحشية بل الناهشة الأكّالة التى تفتت صلابة الحجر المكين ، هذه الغابة التى يبتعثها لنا الكاتب بقوة مدهشة يحكمها نسق فكرى - وميتافيزيقى - يختلف كل الاختلاف عن نسق الصحراء العارية المجردة المحددة القاطعة فى زهدها الأزلى .

وبين هذين العالمين النقيضين بكل مايمثلانه ويرمزان له الغابة الآسيوية العارمة ، والصحراء الإفريقية العارية ، تأتى العودة النوستالجية إلى الريف الفرنسى الهادئ الوديع ، والكنيسة الرومانية الصغيرة القابعة فيه بحدودها الإنسانية فى مقابل المثول الساحق لما يتجاوز حدود الإنسان ، اللا إنسانى فى طغيان الحيوية ، الصاخب الجارف الآسيوى ، واللا إنسانى فى وطأة الحضور الصامت لسطوة الصحراء المصرية الإفريقية .

ولكن ما يوحد بين هذه الأنساق الثلاثة فى الحياة وفى رؤية الكون ، هو ما يمكن أن نستشفه فى عقيدة الكاتب من أن هناك قانوناً أولياً جوهرياً يحكم كل شىء ، ويضبط كل شىء ، قانوناً سابقاً ومفروضاً ولا رادّ له ولا انتفاض عليه ، وأن ثم عقاباً لامفر منه على الخروج عن حكم هذا القانون الكونى ، وانتهاك هذا النسق نفسه فى كل الحالات وبالأسلوب نفسه .

إن ثعبان الناجاناجا الآسيوى - أو الصلّ الملكى الفرعونى - ليس مجرد الزاحف الحيوانىّ الفيزيقى المعروف - على كل مايحيط به من رهبة - بل كأنه حامل ألعوبة ومنفّذها والناطق بالحكم .. إنه المنتقم الجبار الذى يقضى بأن تعود الأشياء إلى نصابها ، هو الكيان الذى ينفى تدخل الإنسان ويزدرى فضوله الصغير الذى يدفعه إلى « معرفة » تكنولوجية ضئيلة الشأن فى نهاية التحليل ، فى مواجهة معرفة أعمق وأصفى وأخفى - تتمثل هنا فى « الموسيقى » القائمة قبل وجود الإنسان فى الأرض وبعد فنائه من على ظهرها .

الإنسان « الأوربى » المسلح بأدوات العلم يقف كأنما لاحول له أمام الأسرار والغوامض التى لايجوز كشفها ، ولايصح انتهاكها أو فض فعاليتها ، كأنها هى جوهر الكينونة نفسه ، وليس جوهر الكون فقط .

هذه الأسرار يعرفها الإنسان الشرقى فى غابات آسيا أو فى صحراء إفريقيا ، إذ لايعصى هذا القانون بل يندمج فيه .

العصيان على هذا القانون الأوّلى موضوعة أساسية فى الرواية ، سواء كان ذلك فى النسق الأوربىّ أو كان - أساساً - فى النسق الآسيوى أو الإفريقى .

العقيدة الفلسفية عند هذا الكاتب - وفى هذه الرواية فيما يبدو لى - أن ما يدمرنا هو : أننا لانستطيع الجزم بأنه لاتوجد إلا حقيقة واحدة ؛ ذلك أن وجود حقيقة أولية أساسية واحدة هو وحده القادر على أن يصل بنا إلى برّ النجاة ، بينما نحن نتخبط فى شباك أكثر من

حقيقة واحدة ، أكثر من سلم موسيقى واحد ، أكثر من نايٍ واحد . التعددية إذن – فى هذه العقيدة الأفلاطونية – هى سرّ الهلاك .

الرواية تعتمد إذن رؤيةً ميتافيزيقية تقوم وراء النص السردى وتسنده ، وهى رؤية تعتمد مقومات أساسية أولها أن هناك نظاماً للكون – وللكينونة – لايجوز الخروج عليه ، وإلا عوقب العصيان بالهلاك .

ثانى هذه المقومات أن الانتقال من عالم إلى عالم لابد أن يؤدى إلى شرخ أو إلى انكسار .

وثالثها وأهمها أن ثمّ قدراً مفروضًا من البداية يحكم مصير الإنسان ، ولايمكن التملّص من قبضته ، وهو القدر – أو النظام الكونى – الذى هو الكمال المطلق المتمثل فى الموسيقى الأولية الأصلية التى تتجاوز اللعب والتطريز الصوتى لكى تصل إلى جوهر الكينونة نفسه ، هو الكمال نفسه الذى جسّده النحات المصرى القديم فى تماثيل تجتاز عوار الإنسان الفانى وعوارضه لكى تحدد نهائيًا جوهر الإنسان فى مطلق كماله .

وأخيراً ، فإن من هذه المقومات : الإيمان البدائى بأن الموت والحياة وجهان لحقيقة واحدة ، وأن الخير والشر صنوان ، وأن الموت الذى تجلبه الفوضى والشرور إنما تعدله الحياة التى يمثلها التّنّين الخيّر ، إذ يعيد الأمور إلى نصابها أو إلى نظامها الذى لم يغادرها قط ، بل هو دائمًا كامن فى جوهرها .

إذا كانت القيم الفكرية مقومًا أساسيًا فى بنية هذه الرواية (كما ينبغى أن تكون فى كل الأعمال الفنية الجديرة) فإنها تقوم بجانب أو - على الأصح - بالانصـــهار مع القيم السردية البحتة :

ليست الحكايات - وما أكثرها هنا - مقصورة على سرد وقائع أو ابتعاث شخصيات وأحداث - مع أنها شائقة وممتعة وجذابة - بل هى فى الوقت نفسه إشارات إلى معان عقلية وإلى تأملات فى الحياة وفى الكون والجوهر الأعمق للأشياء وللأحداث ، لاتقل إثارة وإمـــتـاعـاً وتشويقًا .

والكاتب هنا يرسم شخصياته الآسيوية أو الإفريقية ، المصرية أو الأوربية ، على السواء - بإيجاز - بخطوط قاطعة تكاد تحيلها إلى رموز أو علامات ، مع أنها قوية الإيحاء بالحياة وبالوجود الفنى الذى يفرض نفسه على روح القارئ وعلى ذهنه ووجدانه مَعًا .

أحمد ، النوبى المصرى العجوز ، يكاد يكون هو نفسه الذى يتجسد فيه سرّ الكون ونظامه ؛ فهو « يعيد كل شىء إلى مكانه » ، كما يوشك أن يكون نبيلاً حيّا لمومياء النبيل المصرى القديم « منتؤمنحات » التى اكتشفها الآثارى وانتهك حرمتها وفضّ لفائف أسرارها ، كما لو أنه حاول أن ينبش أسرار الموت والحياة أو أسرار الأنا والأنت ، فانتهى به الأمر إلى الهلاك للمرة الثالثة والنهائية .

بعد أن مارس العصيان على النظام فى صباه فى ربوع الريف الفرنسى ، كما مارسه فى عنفوانه فى أحراش آسيا ، ثم جرؤ على العصيان الأخير فى الصحراء المصرية فعوقب بما يعاقب به كل من خرج على الامتثال للنسق الكونىّ .

والشخصيات الآسيوية لاتقل حيوية وإيحاءً ، وهى - على غرار شخصية أحمد أيضًا - ترتبط بالموسيقى ارتباطًا أكثر من عضوىّ ، كأنه ارتباط كونىّ ؛ ذلك أن الموسيقى هنا هى القدر ، وهى الكمال ، وهى نظام الكون فيما وراء الحياة على الأرض ، هى « صوت الكيان الذى نذوب فيه ، صوت كل ما لا اسم له » .

إن أسئلة الحياة ، والموت ، والمصير ، والشر ، والعدل ، هى التى تقوم عليها هذه الرواية ، وهى مصوغة أو مضفورة فى أنسجة سردية قصصية شائقة ، وحول شخصيات مرسومة بقوة وحياة .

أما ترجمة كريستين يوسف لهذا العمل - وهى بحد ذاتها جهدٌ جديرٌ بالعرفان - فإنها ترجمة كفء تتوخى الدقة والأمانة ، وتهدف إلى أن تنقل النص الأصلى ، لا بحرفيته ، بل بروحه أيضًا .

هذه رواية جديرة بأن تُقرأ على أوسع نطاق ممكن ، وجديرة بأن يتأملها ويستمتع بها لا القارئ العام فقط ، بل المشتغلون بالفن والكتابة ، فضلاً عن المشتغلين بشئون الفكر ومسائل الحياة .

عالم الآثار
لفيليپ بوسان

دكتور ! إننى أعتمد عليك لكـى تصارحنى بالحقيقة ، أليس كذلك ؟ ولكنى أتصـور أن هذا الرجاء طالما وجـه إليك مراراً من قبل . . . ولاشك فى أن هذا الرجـاء كان يعتـريه دائماً شىء من القلق فى النظرات أو فى نـبرات الصـوت ، مما كان يحـدوك ألا تفصح عن حـقيقـة الحالة ، ويجعلك تخـتلق الأكـاذيب . أما الآن فالأمر يخـتلف : هذه المرة أنا الذى أرجوك ولست بمريـض غريب ، بل أنـا بالذات الذى أسالك . لقـد أتاك من يستـدعيك على وجه السرعـة قبل ساعتين لكى تسعـفنى ، وقد أسرعت إلى سيارتك الچيب . وبينمـا كنت تسـير طيلة ساعتين على الطرق الوعرة ، كنت تعلم أنه فى نـهـاية الـرحلة سـأكون بانتظارك هنا ، على هذه الشرفة ، حـيث جلست أكثر مـن مرة لتشرب الشاى المعطر بالنعناع . هذا الشاى الذى سيقدمه لك أحمد بـعد لحظات . لقد كـانت لديك فسحـة من الوقت لأكثر من سـاعتين لإعداد ردك ، أليس كذلك ؟ ولـكن لاحظ كيف أتكلم ، إننى أحـاول أنا أيضًا أن أكـسب بعض الوقت ، كـمـا أحـاول أن أربح بعض الثـوانى قـبل أن تجـيب على سـؤالى . . . قل لـى

يادكتور ، ما تشخيصك لخطورة حالتى ؟ ما الاحتمالات التى تراها : واحد على اثنين ؟ أو واحد على عشرة ؟ لاشيء إذن . لقد كنت أعرف ذلك ، لكنى كنت أريد أن أعلم شيئًا آخر : كم يتبقى من الوقت ؟ اثنتا عشرة ساعة ؟ أقل من ذلك ؟ طبعًا أنت لاتريد أن تخبرنى ؛ لأنك عندما كنت فى سيارتك منذ قليل قررت أن تجنح للصمت بخصوص هذا الأمر . لقد استغرق حضورك وقتًا طويلاً . . . كان الوقت يبدو وكأنه لايمضى . لقد بدأت ساقى تنتفخ قبل أن يحملونى إلى هنا . لم تكن ساقى تؤلمنى فى الواقع ، ولكن كان مؤلما رؤيتى لها ، وأيضًا يقينى من أنك سوف تصل متأخراً جداً ، كل ذلك كان يجعلنى أشعر بطول الوقت . . . كان شعورى ببطء مرور الوقت هو الذى يؤلمنى . كانت كل نبضة من نبضات قلبى تسبب لى ألما فى ساقى ، وكنت أعد تلك النبضات . كنت أعد الثوانى ونبضات قلبى معًا . لم أكن أتوقف عن العد : ثلاث ساعات لكى أصل إلى هنا ، ساعتان ليذهب محمود لاستدعائك ، ساعتان حتى تأتى معه ، لم يكن بإمكانى أن أنأى بتفكيرى عن هذه الساعة التى تدق وكأنها فى جسدى . . . وقلبى ودمى . . . وقد أصبحت حياتى فجأة قابلة للمساءلة ، قابلة للقياس . دقات الساعة هى أنا . والآن أنت هنا وأنا أعلم . . . لايوجد شىء جاهز يادكتور . هل اتصلت تليفونيًا بالأقصر قبل أن تغادر

مـسكنك ؟ ولكن بودو سـيصل بعـد فـوات الأوان . ليس هناك شيء جاهز ، لايوجد شيء منظم . مذكراتى ليست مرتبة ، ليس ثمة شيء مـدون فيها . لقـد كنت أعتمـد على ذاكرتى ، وكنت أدون ملاحظاتى بطريقـة عشوائيـة . إننى كنت أنتظر دائمًا شيـئًا جديدًا قد يحدد اللحظة التى سأبدأ فيها وضع كل شيء فى نصابه . ولكن فى الآونة الأخـيرة الـتهـيت بهذه المقـابر التى كنت قـد اكتشـفتها قـبل ثلاثة أسابيع . إنها أجمل مـا اكتشفـته حتى الآن . . . كنت أشعـر بأنى كارتر [١] الصغيـر ، كنت أمثل دور لورد كـرنزفون أمـام مقـبـرة توت عنخ أمون ، وكنت أريد أن أجـرد محتـوياتها بأسرع مايمكن ، وأقـيم الكنوز التى اكتشفـتها ، وهى تماثيل لاثنين من الوجهاء ولحاكم إحـدى الولايات ، عثرت عليها سليمـة مع منقولاتهـم وأدواتهم الجنائزية . وكنت أستـمتع حـقًا بالقيام بهذا العمل طيلة ثلاثة أسابيع : كانت آخر أسابيع حياتى . كنت أنجـز هذا العـمل لأننى كنت أسـتـمتـع بالقيـام به . كـان باسـتطاعـة أى إنسـان آخر أن يـقوم به بـدلاً منى إلا أننى كنت الوحيـد الذى يجيـد التعرف على المئـات من الكتل المبعـثرة على الرمال . لن يعرف بودو كيف يعيد تجميع أجزاء المعبد ، وعليه أن يعيد العمل بكامله من جديد ، وهو لن يجد حتى الإفريز المنقوش عليه الثـعابين الأطلال بكامله . . . إن تلـك الثعـابـين هـى

(١) كارتر ولورد كرنزفون : آثاريان عثرا على مقبرة توت عنخ أمون .

التى جعلتنى أعود إلـى هنا هذا الصباح . لقد كنت محـتاجًا لأن أرى مرة أخرى الاثنـتى عشرة كتلة من الصلصـال التى لم أستطع إعادة ترتيب أجزائهـا ، كنت أريد أن أشاهد هذا الإفريز الذى لم أره منذ ثلاثة أسابيع . إن صورة الأطلال المنقوشة عليها هى التى استـدعتنى ، لقد أسـرنى فحيـحها . كان ذلـك بمثابة فخ عظيم بالنسبة لى . . . إنك تسـتطيع أن تكتب الآن مقالاً جميـلاً تقدمه للصحـافة بعنوان اعتـرافات آخر ضحـية للفراعنة . ثعـبان الصّل الملكى يحتفظ بسـره . انتقام المصريين يستمـر . يمكنك أن تتخيل أسلوب هذا المقـال . ولو كـانت لدى فسـحـة من الوقت لكنت أمليته عليك الآن . . إنـنى أعرف التفاصيل التى قـد تعجب قراء صحافة الأحد . خمسـون سنة بعد وفاة إيرل كرنزفون الخامس ، لعنة الفـراعنة مـازالت تـلاحق نابشى القـبـور . قـد يكون هذا الأسلوب ممتعًـا ، أليس كذلك ؟ وخلال هذا الوقت أكـون أنا قد ألحقت بزميل الحاكم منتؤمنحـات . إننى أعمل منذ أسبوع ، وقد رفعت اللفائف التى كانت تحيط بمومـيائه ، وتوليـــت علاجها . وكنت أشعر وكأن للـموت كيانًا أمسه بأناملى . لقـد لمسته ، لقد أمسكته وتحـسسته بيدى . كنت أعـامل هذا الجـسد الذى تجاوز عمره أربعة آلاف سنة كما يعامل الممرض مريـضه ، كنـت أؤدى ذات الحركات التى تقوم أنت بها يادكتور ، أو أقوم بـــــحركات أم حنون حديثة السن وهى تعنى بابنهـا الــصغير الضـعيف .

كنت أبـــــذل من العناية والرفق فى رفع تلك اللفـائف وحلهـا مالا تبذله أنت عندمـا ترفع ضمادات أحد مـرضاك وهو يتألم . كنت أحل أمتـــاراً وأمتـــاراً من هذه اللفائف معريًا شـيئًا فشيئًا هذا الجثمـان الذى كان ينتظرنى منذ أقدم عهـود التاريخ ، والذى امتدت حياته ثمانين مرة مدة حياته الفعلية ليلتقى بى . كنت أفكر فى هذا الميت إلا أنـنى لم أكن لأفكر فى الموت ، بـل كنت قـد تغافلت عنه . مر زمـــن كانت فيه فـــكرة الموت تلازمنى يومياً ، وهى مقرونة تمامًا بالثعبان الذى كان يمكنه أن يثب فى أية لحظة : إلا أن ذلك لم يحـدث هنا ، فى هذا البلد ذى الجـو الصـافى حيث تبـدو الأشيـاء بمنـــتهى البســـاطة والوضـوح . عندما كنت أشـرف على إعادة بناء مـعـبد فـى غـــابات كمـبوديا الشمالية ، مات مساعدى الكمبودى أمامى فى فـات بريه تات . أنا لا أريد أن أمـوت مـثله . يا دكـتور : إنـــك سوف تقـوم بعـمل الـــلازم عنـــدمـا يـصبح ذلك ضـــروريًا ، أليس كذلك ؟ استعمل المـورفين أو أى شـــىء آخر تـراه مناسبا . إننى لا أخـشى الألم إذ إننى جربتـه من قـبل ، وصارعـته مـرتين أو ثـــلاث مرات : إن الألم يبـــقى الذهن متيقظًا ، عندما لايتطلب الأمر سـوى كسب المزيد من الوقت . ولكـن الـــوقت هو مالا أملـكه الآن . إن الألم لايـــسمح للإنـسان بأن يفـــكر بشىء آخر سـواه . فالإنسـان يتحفـز لـلألم ، ويراقبـه ، وينظره . إنه يقدره ، ويـــقارنه ، بل ينتظره بصـفة خاصـة . إذا غاب الألم

لحظة ، فهو لاينساه ولكن يبـقى مترقبا فى انتظار عودته . أنا لا أريد أن أستغرق فى الألم بحيث يشـغلنى عن مرور الزمن المتبقى لى . إنك مـازلت تجهل ذلك حـتى الآن ، أليس كذلك ؟ لقـد توقف كـــل شىء منذ قليل ، كما أن كل شىء يـسير بعجلة فى نفس الوقت . لقـــد توقف شىء ما .

وهذا الشىء هو أنا بالتأكيد .

ماذا كنت أقول ؟

شو براك . إننى لا أريد أن أمـوت مثله يادكتـور . ينبغى أن يحدث ذلك . كنت قـد غادرت كمـبوديا وحـضرت إلى هنا كى أنعم بفـترة مـن الراحة . لقـد أبعـدت نفسى عـن الأشيـاء التى شكلت حياتى طيلة خمسة عشر عـامًا ، كما ابتعدت عن أعمالى فى انكور ، وعن كل شىء كنت أحـبه . لقـد اكتشـفت هنا هذا الكيان المركز ، وهذا الوجود الثـابت ، وهذه الآفاق المترامية التى تحف بهـا الرمال والصخـور والسمـاء وهذه الكتلة الخضـراء التى يتكون منها وادى النيل . . . أما هناك فلم يكن شىء ثابت . ولم يتـسن لنا أن ندرك شيـئًا . إن الأوراق الـتى تكسو الطريق كـان بإمكانها أن تفاجئنا بأى شىء كحفرة أو ثعبان أو تمثال رائع . كان حطام المعبد ينبثق من فـوق النباتات وكأنه بازغ من أى عنصر من عناصر الطبـيعـة . كانت الحجـارة تبدو وكأنهـا أمتداد طـبيـعى

للنبات . كانت تنبثق منه وكأنها متداخلة معه فى كيان متوحد .
هناك كان كل شىء ينصهر ويتداخل . السماء تكتنف كل شىء
فى الأفق وعلى الأرض فى حقول الأرز المشبعة بالمياه ، وبعض
الخطوط السوداء التى تمثل الأرض ، وأشجار النخيل التى
تنطلق من مشارق السماء إلى مغاربها ، وقوافل من السحب
الثقيلة والداكنة تسير فى أعالى السماء بمحاذاة الأفق . وكان
ينبعث من كل ذلك شىء يفيض بالحنان والعطف ، لاشكل له
ولاحدود ، يغوص فيها الإنسان وهو يتساءل : إلى أى مدى
يمكنه أن يتقدم ، فيكون الرد : إلى لاشىء . لايصطدم الذهن
بأية حدود ، والخيال حر فى أن يعانق كل شىء ، ويمزج كل
شىء ، ويخلط كل شىء . لايوجد شىء حقيقى فى الواقع ،
كما لايوجد شىء باطل فى كيانه الوهمى ؛ إذ إن العقل لايجد
شيئًا ثابتًا يستند إليه ويستخدمه كركيزة لينطلق منه . أما الغابة
فهى توجد حيث لايوجد الماء ، تلك الغابة التى يمكن أن يتوغل
فيها الإنسان فيتوه فى أعماقها ، والتى يقع فيها المعبد المكون
من الأحجار والطحالب والأشجار حيث يسود هارى هارا الإله
الذى يمتزج فى كيانه كل شىء ، والذى يخرج منه الثعبان
الذى يقتل شوبراك . أما هنا ، على ضفاف النيل ، حتى اللغز
يبدو أسهل وأبسط . إن حدوده هى حدود الضوء والظل ، وهى
دقيقة كحد السيف . ينبعث هذا اللغز من حوارهما ، وتضمه

بعناية جدران المعبد . كنت قد اخترت هذا الربع من النوبة لكى أستريح . وكان ما حدانى إلى هذا الاختيار هو التقاء خط الأفق مع الصحراء ، وخط النيل داخل الصحراء ، وخطوط المعبد المرتسمة على لوحة السماء ؛ لأن مياه نهر النيل فى كثافتها لاتعكس السماء ، فالماء هو الماء ، والسماء نقية زرقاء على الدوام ، والأرض ليس لها سوى ألوان الذهب والنحاس الأحمر ، وهى تتغير مع مرور ساعات النهار ولكنها تظل أرضًا . لقد كان بإمكانى أن أختار أن أعمل فى قرية الفلاح أو فى قرية معبد السبوعة إلا أننى اخترت هذا المعبد لأن الصحراء هنا لاتحد ، حيث لايوجد حتى خط من البوص ليخفف من حدة منظر الماء والرمال . إننى قد أحببت هذا العمود الوحيد المنتصب أمام زرقة السماء . إن هذا النقاء الاستفزازى للجو كان يؤلمنى فى بادئ الأمر ، ولكنه كان ضروريا بالنسبة لى ، أو هكذا كنت أتخيل . كان يجب أن أولى الإفريز الذى نحتت عليه الأصلال اهتمامًا أكبر . عندما وصلت هنا كانت هناك كتلتان حجريتان كبيرتان ملقاتان على الرمال بين أعمدة الواجهة الشرقية . لقد رأيتهما وأحببتهما . بعدها استخرجت عشر كتل أخرى من باطن الرمال . إن هذا الإفريز أجمل إفريز نقشت عليه أصلال فى كل القطر المصرى . على بودو أن يجرى الأبحاث أيضا بالقرب من العمود المربع الشمالى : فما زالت أربع كتل

ناقصـة لاستكمـال الإفريز ، لابد أنها مـوجودة هناك . سـيدله مـحمـود على ذلك بينـما أذهب أنا لألتـقى بمنتـؤمنحـات الذى ينتظرنى عند الإله أوزوريس . طيلة أمسيات الأسبوع الأخير التى كنت أمضيـها معه لأحـرره مـــن لفـــائف الأربطة الجنـائزية التى كـانت تـدثره ، كنت أتلقى منه رسـائـل عـديدة ، لم أكن أفـهـــمهـا . وفى كل مرحلـة من عمليـة حل الأربطة ، كنت أكتـشف شيـئاً جديـداً تحت اللفـــائف ، من تميـــمة إلـى قطعة صغيرة من الخشب السحرى ، إلــــى تعويذة أو دعاء مكتوب . إننى قـد حـفظت كل ذلك عـــن ظهـر قلب ولكـــننى لم أكن أفهمها : " منتؤمنحـات سوف تفسح لنفسك مكانًا بين النجوم : ألست أنت نجما منها ؟ سوف ترنو من الأعالى إلى أوزوريس وهو يلقى بأوامـره إلى الأرواح . ها أنـــت الآن بعـــيد عنه . إنك لست بين تلك الأرواح ولن تكون بيـنها " . ثم اكـتشـفت أمس الأول فوق صـدره - وقبل أن أكشف عـن وجهه - تعـويذة جاء فيها " انهض أيها الحى ، إنك لم تمت . انهض لكى تعـــيش ، إنك لـم تمت " . كنت أمسك بهذا الجثـمان بين يدى كل مساء ، وكنت أفكر فيـه وأشعر نحـوه بنوع من الحنان . كنت أعرف كل شيء عن مقتنياته ، وقد لمست كل من كان مـلـــتحقًا بحياته : إن قوسـه وسهـامه هـا هـى هنـــا ، انظـــر إليهـا فـــى هذا الركن بالقـرب من منضدتى . كنت قـد أمســـكت بـــين يدى بخُفّـه ، وكنت قد حركت عصـاه التى صقلتها يده فـــأصـبحت

لامعة بعد مداومته على استعمالها كل يوم قبل أربعة آلاف سنة . وكذلك رأيت لعبة الشطرنج الرائعة الخاصة به والمصنوعة من العاج وخشب الأبنوس . وكذلك سريره الخاص مع مسند الرأس المصنوع من الخشب النفيس ، وهو المكان الذى كانت فيه تهبط عليه الأحلام ، حيث يستسلم لها المرء تماما ودون أى تحفظ ، وحيث يرقد أيضاً ضميره . وبالأمس - فى آخر يوم عمل أمضيته هنا - كنت قد رفعت القناع المصنوع من الخشب المدهون وحللت آخر الأربطة ، رأيت وجهه الأسود الهزيل متجعداً شبيهًا بالرق ، صلبا كالحجر ، وكانت أيدى المحنطين قد غيرت ملامحه ، وبرزت من بين شفتيه المتجمدتين بعض الأسنان - لم يكن متقدمًا فى السن بل كان سنه مماثلاً لسنى ، ما الفرق الذى يميز مومياء عن إنسان حى ينظر إليك ، وتتحدث إليه الآن يادكتور ؟ لاشىء طبعًا سوى قرون الزمن الطويلة المتلاحقة التى تنحدر منها . فأنت هنا حى ترزق ، دمك يغلى فى عروقك ، وذهنك يفكر !! أما أنا فكنت أتلمس هذا الشعر وهذا الوجه الداكن السواد وقد جمده النطرون ، بينما كان يعترينى شعور بالاحترام بل بالرهبة . ها هو منتؤمنحات ، رجل مكتمل الكيان . انهض ، إنك حى ، انهض أيها الحى ، فأنت لم تمت ، كان الموت نصيبه هو ليس نصيبى أنا ، فأنا حى وأتساءل ماذا كان عساى أن أدرك وأفهم ؟ كنت فى هذا المكان ،

يملؤنى الإحساس العميق بهذا السر الرهيب ، ولم يكن باستطاعتى حتى أن أتصور السؤال الذى كان يطرحه منتؤمنحات أو السؤال الذى كان يتحتم أن أطرحه عليه . أما الآن ، فالأمر يخصنى أنا . منتؤمنحات ، هذا هو أنا . فمنتؤمنحات ، إننى أتركه لك يادكتور ، إنه ملكك الآن . كنت أنوى أن أسلمه لك خلال بضعة أيام ، لكى يعبث به مشرطك الصغير . إن الموت هين بالنسبة لك ، حيث يجرى الحديث عنه بمصطلحات لاتفصح سوى عن أعصاب وعضلات وعظام ووظائف تتوقف فجأة وقلب لم يعد ينبض ودم يتجمد . كنت لاتترك شيئًا مجهولاً عن حياته ، أليس كذلك ؟ وكنت قد تشخص أسباب موته كما لو كان توفى بالأمس ، كنت سوف تعلم بعد أربعة آلاف سنة كل مايتعلق بأمراضه الصغيرة وبتشوهاته الخلقية ، كنت سوف تعلم ما الذى كان يحول دون استمتاعه بالحياة ، أى حالة مفاصله ، وندوب جروحه ، ودورته الدموية ، وغدده ؛ فلقد ترك لك المحنطون كل ذلك . كان يمكنك أن تعلم كل ذلك . ما أجمل العلم وكم هو قيم . أما بالنسبة لى فالأمر يختلف ، إذ إننى استبحت سره ، أنا الذى اغتصب قبره . أنا الذى جردته ونزعت عنه النصوص السحرية التى كانت سوف تحميه إلى الأبد . لقد حطمت شرنقته . انتزعته من دار الخلود التى كان قد أتقن بناءها أكثر مما أتقن تشييد منزله . هذا الرجل الذى عاش حياة امتدت

خمسين سنة فى مسكن مصنوع من جريد النخيل ومن الطين المجفف ، يقيم الآن بعد موته فى قبر مبنى من أحجار مشيدة بفن رفيع ، تزينه رسومات كان من المفروض ألا يطلع عليها أحد . ما هذا الإيمان المبهم الذى جعله يحمل معه إلى الفناء مخدعه وخفه وقوسه وحليه وكل ما كان يمتلك من أشياء جميلة ونفيسة وكل ما أحبه ، هذا الإيمان الذى كان يجعله يصيح : انهض أيها الحى ؟

لو حدث ذلك فى كمبودياً لكانوا قد أحرقوا جثمانه وأفنوا حتى مادة كيانه ، ومحوا كل أثر لحياة إنسان عاش وتنفس وكان له اسم ووجه . لم يكن ليعاد إلى الأرض لكى يذوب فيها : بل لكانوا قد بعثروا رفاته فى الهواء وفى مياه النهر لكى لايتبقى أى شىء على الإطلاق ليشهد على وجود كيانه من لحم وعظام . وذلك كما لو كان يليق أن يذهبوا فى مايفعلون إلى أبعد وبطريقة أسرع من الطريقة التى تتبعها الطبيعة ذاتها . فى هذا البلد حيث تتحلل جثث الأفيال فى دبال الأرض وتتلاشى فى غضون فصل واحد من فصول السنة ، وحيث الأرض تمتص وتهضم كل شىء : الناس ، والمنازل ، وهياكل سيارات النقل المحطمة ، والأحجار والمعابد المهجورة ، لتعود وتنسج منها النباتات المتعرشة ، وأوراق الأشجار ، وسيقان النباتات ، والطحالب ، لتجعل منها مرتعا تتكاثر فيه الحشرات والثعابين تكاثرا رهيبًا ، هناك كل شىء ينصهر ويذوب . كنت أعمل مع شوبراك لكى

أنتزع من الأرض كنوزها الدفينة . كنا نعيد المادة الحجرية لمعبدنا فى فات بريه تات المتهدم بين الأشجـار والغارق فى بحيرة من الخضر المنبثقـة منه والطاغية عليه . غرست بعض الأشـجار جذورها فى الأبراج ، وكانت قد امتـدت هنالك جذور أشجار الكابوك وبدت كظهـور الزواحف المتوحـشـة ، رافعـة كتـلاً من الجدران . أمـا النباتات المتعرشة فكانت تتغلغل بين كتل الأحجار وتزحزحها عنوة . كانت الغـابة تبتلع كل ما لاينتـمى إليها . كـانت تقرض زوايا الأحجـار وتخفـيها تحت غطاء من أوراق الأشـجار حـيث كانت تتعفن كدبال الأرض . أمـا أنا ، فكنت أتعاون مع شوبراك لننتزع منها المواد التى كانت قد عادت واستـولت عليها . كل صباح كان شوبراك يكرر جولته بين تراكمات الكتل المتآكلة بسبب المطر . كان يصل عند الفجر ، حين تبدأ القردة والطيور عـزف سمفونية الحياة . كان يتجول كحارس الغابات عندما يأتى ليتفقد الأشـــراك التى نصـبهـا ، كان يتـوقف ، ثم ينحنى ، ويستـأنف التجـول ، ثم يجلس على كتلة من حجر منحوت ويخرج من حزامه نايا صغيراً مصنوعًـا من البوص يسـمى خلوى ويعزف عليـه نغمـات بدائية ورتيبة تتمايل ألحانها تمايل الأغصان الرقيقة المتـــدلية فى الهواء .

لم يكن يتصـرف مثل الكمبوديـين الأصليين ، وعندما كنت أصل بدورى فى ساعـة متقـدمة من النهـار كان يستـقبلنى مـبتسـما :

- تعال ياسيد لقد عثرت على شيء .

وكان يشير إلى جزء من رأس أو يد تمثال أو ماتبقى من عمود أو برواز باب منقلب .

- انظر إلى ذلك ياسيد .

كان يستدرجنى إلى مكان يبعد عشرين خطوة ، تتراكم فيه أكوام من الكتل ، ويشير إلى ماكنت أعرف يقينا أنه ذراع راقصة أو التمثال النصفى المكسور الذى كانت رأسه ملقاة هناك تحت جذر شجرة كان أشار لى إليه . كان ذهنه يستوعب أجزاء لاتحصى من لعبة التراكيب المتداخلة وهو يقوم بمشابكتها وضبطها عن بعد فى ذاكرته . لم يكن فى حاجة للانتظار والتصرف مثلى عندما استدعيت ذات يوم عشرة من المزارعين وأحضرت فيلا ليقوم بدور رافعة آلية لكى أنتزع من ركام النباتات المتداخلة ماكان شوبراك أعاد تركيبه فى ذهنه من باب أو عمود أو راقصة أو بطل أو إله . لقد حدث ذلك يادكتور فى يوم من تلك الأيام التى أتحدث عنها . كان يجب أن ألتزم بحكمته ، وألا أعيد بناء المعبد إلا فى مخيلتى ، وأترك الأحجار حيث كانت ملقاة تحتضنها الجذور والأغصان الرقيقة المتدلية دون أن ألمسها البتة . كان الثعبان ينام فى جحره تحت الأحجار ، إذ إن الثعابين لاتغادر جحورها إلا ليلاً أو فجرا . وحتى ولو لم أكن

بعـيداً ، مـا كان أمـــامى وقت كـاف لأقوم بأى حـركة . لقـد سمـعت صرخـة شوبراك . كـان يعض يده كما لـو كان يريد أن يستأصلها بأسنانه ، وأن يتحرر من هذا الجزء من جسمه من حيث اخترقتـه المنية . لقد سحبنا هذا الجـسم المجنون الذى كان ينتفض بين أيدينا ويجـعل حامليـه يتعـــثرون فى خطـواتهم . كـانت حقـيبتى المزودة بالمعـدات الطبية على بعـد خسمائة مـتر ، داخل سيارتى الچـيب ، ولكننى لم أكن فى حاجة لفتـحها . . إن هذه الميتـة ترعبنى يادكتـور . إن تفكيرى فيـها جعـلنى مـؤرقا ، لم أستطـع النوم لعدة أسابـيع . إننى لم أعد أدرى الآن كـيف مات شوبراك . لقد حدث ذلك وكأن هذا الثـعبان الـرهيب الـذى لم تتح لى فرصـة لرؤيته قد بث فـيه - فى جزء من الثـانية - ليس الموت فحسب بل الجنون . إن الذى حدث كان شيئًا مذهلاً . لم يعد شـوبراك - الرجل قصير القـامة - المبتسم دائمًـا الذى يعزف على الناى ويضـحك فى المسـاء مع الأطفال . كـانت صـرختـه صرخة معتوه . كان يحاول أن يعض بينما كانت رأسه منحنية إلى الخلف ، وكـان يتصـاعد من صـدره ولـــولة أقـرب منهـا إلى الحشرجة - كيف يمكننى أن أصف ذلك ؟ إنـنى كنت أسمع تلك الحشـرجة كل ليلة وأنـا نائم ، وقد تكرر ذلـك طـــوال الليـالى التى أمضـيتهـا هناك . إن كمـبوديا التى أحبـبتـها امتـلات بهذه الصرخـــة . لم تكن صـرخـــة حيوان جريح ، كمـا أنـــها لم

تأت من الجذور الحيوانية . وإن قلت لك إنها كانت تبدو آتية من أعماق حـقبة ما قبل التـاريخ يادكتور هل تفهـمنى ؟ إن الحيوان لايمكنه أن يشعر بذلك . لـم يكن هذا صراخا يمت إلى الألـم ، كان نوعًا من الهول أشبه برهبـة مقدسة ، لم تكن صرخة عذاب . لقد مـات شوبراك قـبل الأوان بسبب آخـر . وكنت أفكر فى ذلك كل ليلة وأنا أنتظر بزوغ الفـجر ، بعد الـكابوس الذى كان يعترينى يومـيًا فى سكون منزلى الخشبى الذى كانت تتـوغل فيه من كل الثغـرات أصوات رياح الغابة التى تقع علـى بعد مـــائة متر ، يصحبها إيقاع الضربات الرتـيبة لفروع الساقية المركبة على ضـفة النهـر أمـام باب منزلى ، متـزامنة مع نقـيق الضـــفـادع الضخمة ، إلا أنك لاتستطيع أن تـفهم ذلك فأنت لاتعرف كيف ينتظر الكمـبوديون الموت . كـان على شوبراك أن يموت - مـثل أبيه شـاك سموك - وهـــــو يظهر شيـئًا من اللامبـالاة أو عدم الاكتراث بقدره ، فهذه هى الطريقة التـى يتبعها الكمبوديون فى مواجهـة المنية . ولكن هذه الغابة المليئـة بالأصوات والتى كانت تحيطنى من كل جانب ، كل ليلة ، كانت تصل إلى أصواتها من كل الفتحات والثغرات فى حجرتى المظلمة ، إلا أن الغابة ليست نسيجا من الأشجـار العملاقة والأغصان الرقيقـة المتعرشة . إنها العنصر الأول للحياة . إنها بمـثابة الجذر لكل شىء موجود على الأرض . فهى الأم . كل ماله وجود نابع منهـا ويعيش بفضلها

له ويفنى فيها . إننا نعـيش للحظة واحدة منفردة ثم نعود لنذوب في الكيان الأكبر الذى لايكترث بتطورات كل ما يتضمنه ، وهذا هو مايحدث بالنسبة للأحياء والجماد على حد سواء . لم تكن فات بريه تات ملكًا لنا : لالصديقى شوبراك بصفته كمبوديًا ، ولا لى أنا كرجل أبيض ، ولا لأى إنسان آخر . إن الصل الأكبر - الثعبان الحجرى - كان قد طردهم من فات بريه تات وأعاد المعبد إلى مصيره الأول ، أى أن يتلاشى فى الازدهار الأولى ، أى فى الكيان الأكبر غير المحدود ، ألا وهو الغابة . ولكن شوبراك - طوعا لأوامرى - كان ينتزع كل صباح بعضا من ممتلكات الغابة . كنت علمته كيف يصنف الأحجار المتناثرة ، ويتعرف عليها ، ويعيد توزيعها ليعيد بها بناء المعبد المهجور . لقد قمت بالتأثير على تكوين عقله ، وأفسدت طريقة تفكيره ، وعلمته كيف يدنس نظام الأشياء ، إننا كنا شريكين فى جريمة التدنيس . وكان قد وضع يده على الحجر ، ومن الحجر خرج الصل الذى يمثل انتقام نظام الكون . وكان ذلك بمثابة العقاب . إن هذا الرعب المشل للحركة والهول المنبثق من التدين ، رأيتهما فجأة حينما كان شوبراك مساعدى الوفى المتواضع يغرق فى لججهما . لم يكن الموت ولا الألم ولا الثعبان هى التى تجعله يصرخ ويعضنا ويحاول نهش يده بأسنانه بينما كنا نتعثر بين جذور الأشجار ونحن نحمله ونتوجه به بسذاجة نحو حقيبة الإسعافات الطبية ، كما لو كانت حقنة من المصل يمكنها أن تنقذ من هذا النوع من السم .

أما الآن ، فقد جاء دورى أنا .

كان من المحتمل أن يحدث لى أى شىء . أن يضع أحمد ماء النيل داخل الثلاجة كل مرة ينقص فيها المخزون . وأجد فى كوبى مكعبات الثلج ولها نفس لون الوسكى الذى أشربه ، فأرتشف هذا المزيج . ومع ذلك لم أصب بمرض التيفوس . أما زوجته العجوز التى تتجه نحو ضفة النهر مرتين كل يوم بصحبة كنّتها حاملة على رأسها جرة ، فهى تدعى أن هذا الماء المأخوذ من النهر مباشرة أفضل للجسم من الماء الصافى الذى لالون له . إننى لم أسقط من أعلى الجدران التى كنت أجازف ألف مرة بحياتى عندما أتسلقها لأصوِّر جزءًا من الإفريز المنحوت ، من الزاوية المناسبة للتصوير عندما تكون الشمس على وشك الغروب . كان من الممكن أن تنكسر ساقى فى تل الجبار وأن يجف جسمى تحت أشعة الشمس وأنا ملقى فى حفرة من الرمال . ولم يكن ذلك الأمر هو الذى كان ينبغى أن يحدث لى . لقد هربت من كمبوديا وأتيت مباشرة إلى هنا ، إلى هذا المكان الذى اخترته من بين جميع البلدان ، وجميع الأقطار ، وشتى الآفاق ؛ لأنه لم يكن من المحتمل أن يعيد إلى ذاكرتى أى شىء قد أحببته هناك وأصبحت أهرب من هوله الآن . فلا توجد فى هذا المكان شجرة واحدة ، ولا ورقة من أوراق الشجر ، ولاساق من العشب يمكنه أن يذكرنى ، ليس بالغابة فحسب ، بل بمجرد

وجود أى نبات حـولى . إن الآثار التى اكتشفتهـا هنا كانت تبدو بمنتـهى النقاوة والوضـوح ، وتتـحدى بصـلابتهـا حـــدوث أى مفاجأة . ولم تحدث فى الواقع أى مفاجأة . لقد حضرت إلى هنا فوجدت هذا العمود الفريد منتـصبًا فى الأفق ، كما وجدت على الأرض قطعتين من الإفريز المنحوث عليه تحتمس الثالث ، ملقاتين بين كتل أخر لاشـــكل لها ، وقد اختفى نصفها فى الرمال . لن أقول له إننى اختـرت هذا المكان ، وهذا العمود ، وهذا الموقع . إنما تلك الأشياء هى التى فرضت نفسها على فرضا . إننى حللت فى هذا المكان ، وبدأت فـيه حـياتى من جديـد للمرة الثـانية ، وللمرة الثالثة ، وللمرة الرابعة . أو بالأحـرى لقد اخترته مجذوبًا نحوه كـالحـــيوان الذى يقع فريسة لافـتتان الثعـبان دون أن يعى ذلك ؛ فهو لايرى الثعبـان أمامه على الرغم من أنه لايقوى على التخلص من جـاذبية نـظرته . لقد أحبـبت هــذه الحـــجارة . وأنا أعـــــرف الآن - أو بالأحـرى أيقنت بعـــدئذ - أنهـا تمثل أجمل إفـريز نحتت عـــليه ثــعـابين الصل المقدسـة فى القطر المصرى برمته ، ولكننى لم أدرك قط أن هذه الحيوانات الأسطورية المقدسة التى تحـمى مداخل مـعابد انـكور مـــنذ عـشرة قرون ، هى ذاتها التى تتلوى بنعومة وتنــــزلق تحـــت الأحجار النـــوبية منذ أربعة آلاف سنة . إننـــــى لم أتعرف عليـها . لقد شاهدت هذه الأشكال الناعمــة المرسومة بـــدقـة متناهية والمنحـوتة بمهارة رائعة ، فهى تختلف كليـة عـــن تلـــك البـــدانة الثـقيلة التى

تتميز بها أحجار انكور . هل كان المظهر فقط هو الذى حجب عنى هذا الحيوان الأسطورى عينه الذى دأب على إزعاجى بالكوابيس كل ليلة ، وقد دبت فيه الحياة من جديد وجعلته يبدو الآن أكثر جمالا وسحرا ؟ إننى رأيت هذه الأحجار فأحببتها . نعم لقد أحببتها ، هل تفهمنى ؟ كان هناك حمار ، وكان يبدو وكأنه يرعى (ماذا ترى كان يرعى من حشائش أو من أعشاب شوكية ؟) فهو كان بمثابة الكائن الوحيد الذى لم يكن مصنوعًا من الحجر أو الرمال . ثم فى المساء ، عندما تحولت الصحراء إلى بحيرة من الذهب الأحمر ، رأيت ثلاث نساء يرتدين أثوابا سوداء ، يتجهن نحو النهر حاملات جرارهن على رؤوسهن وهن قادمات من القرية الخفية والتى لم أكن قد رأيتها بعد ، والتى لم أتصور أنها سوف تكون محل إقامتى وآخر مكان أقيم فيه . ياله من صمت رهيب يادكتور . . . إن نهر النيل لايتحرك . لاتوجد حوله طيور . أما النساء فكأنهن أشباح . لاوجود لأى شىء ماعدا ذلك . وجدت فيما بعد هذا الحجرالصغير الذى نحتت عليه بحنان صورة متميزة للملكة نفرتارى . لو كنت رأيته حينذاك ربما كنت أحببته أيضًا ، وقلت لك إن هذا الرسم الجميل المنحوت هو الذى جذبنى إلى هنا . ولكننى لم أكن قد انتزعته بعد من الرمال . لم يكن هنا شىء آخر غير هذه الثعابين المنحوتة . فهى التى جذبتنى إلى هذا

المكان ، وقـيـدتنى به ، وسـوف تكون سـبـبـا فى مـوتى . بل بالأحـرى هى التى تجعلنى أحـتضـر الآن ، إذ يحق لى أن أتكلم عن حدوث ذلك فى الوقت الحـاضر ، أليس كـذلك ؟ لاتتراجع يادكـتور ، لقـد فات الأوان . لو كنت قـد جـئت لتعـالجنى من مرض التيـفوس أو لتجبر سـاقى المكسورة . . . بل أنا أعانى من لدغة الصـل الملكى ، إذ لم أكن أرضى بأقل من ذلك ، ولايمكن الآن عمل أى شىء . هل تعـتقد أن الإنسـان يمكنه أن يساق دون أن يدرى طوال حياته بواسطة شىء مـالايفارقه ولايعرفه ، فـيقوم هذا الشىء نيابة عنه باعـتماد اختـيارات لم يفكر هو فيهـا ، كما يقرر نيابة عنه أيضًا ماذا يجب أن يفعل مـستقبلاً ، وهو يفعله فى الواقع ؟ عندما كنت منذ حين أنتظرك وأنا أعد الدقائق وأنظر إلى ساقى ، كان محمود قد ذهب ليأتى بك ، وجلس أحمد العجوز القرفـصاء بجانبى فى صـمت ، وكان يحمل بين يديه قـدحا من الشاى المعـطر بالنعناع أعده لى . إننى كنت أسـتنشق هذا الأريج الذى كان يصـاحب الأصيل كل مـساء ، عندما يسـرع الليل فى إسدال ستاره على سكون الصـحـراء . كان يحدث حينئذ شىء ما . لقـد أصبح هذا الأريج بالنسبة لى بمثـابة نوع من الإشارة . لن يتحرك شىء حتى بزوغ الفجر . وقد انحسرت الصحراء حتى بدت كـخط أفق أزرق أسـفل السـمـاء . ويمتـد الـظلام ليلتـقى بالصمت الهائل الذى يسدل على كل شىء فيضـخمه ، ويستغرق

الإنسان فى هذا الصمت كما يستـغرق فى نوم عميق . كان أحمد هنـا بجـوارى كعادته كل مـساء ، يصحـبه هذا الأريج الذى ينبـعث من الشاى المعطر بالنعنـاع . كان يلتـزم الصمت ؛ فـهو لايتحدث أبدا . لقد نظر إلىَّ فأيقنت من نظرته أننى مشرف على الموت . حدث ذلك يادكـتور فى هذه اللحظة بالضـبط ، لم تتح لى فرصـة لأدرك كل ذلك . لقد تعـاقبت هذه الأحداث بسـرعة مذهلة : السـيارة الچيب تسيـر على المدق الذى تعترضـه الرمال والمطبات ، بينمـا كان محمود يتـعامل بعصبـية مع مقبض تغـيير السرعات ودواسـة المعجل ، وكان علينا أن نبذل جهدًا كـبيرًا فى كل لحظة لكى نحتفظ بتوازننا ونصمـد للصدمات . ثم وضعونى على مـرقدى على هـذه الشرفـة ، وذهب مـحمـود مرة أخـرى بالسيارة الجيب ليأتى بك ، وكنت أتخيل أننى مازلت معه ، وهو يتمسك بقوة بعجلة القيـادة ، ويتفادى الأحجار والمطبات ، يبدل السرعات بعـصبية وغضب ، كنـت أحاول الهروب من الواقع . بينمـا كنت ممدودًا على هذه الأريكة ، مـا برحت أشعـر أننى فى غمـار سبـاق مجـنون ، أتجـه نحـو هـدف لا أدركه ، ربما نحوك يادكتور ، نعم نحوك أنت بلا شك ، وكنت أحسب الوقت الذى تحتـاجه لتصل إلى هـنا ومـعك حقيـبتك الطبيـة والحقن اللازمة ، كـان ذلك نوعاً من السبـاق غير المنتظم بين الصـدمات والسقطات ، نعم إن هذا الهـروب كان غير مـنـتظم كلية . أى

نعم : غير منتظم . وفجأة عندما رأيت أحمد ومعه قدح الشاى ككل مساء ، خيم السكون على كل شىء مرة أخرى . تجمد كل شىء . لم تعد ارتجاجات السيارة على المدق ترج جسمى ، وشعرت فجأة وكأننى قذفت إلى قلب الكيان المحيط بى ويكتنفه صمت فارغ ومهيب كما يحدث عندما تتوقف الرياح ، وبدأت أشعر بدقات قلبى وهى تنبض فى ساقى . لقد توقف كل شىء وأصبح الزمن هو الزمن الخاص بى ، بنبضاته التى تدق فى داخلى . زمنى أنا الذى توقف وتجمد . كان أحمد هنا ينظر إلىَّ ، وسمعت هذه الجملة : قد فات الأوان ، لقد فارقت الحياة . لقد دخلت هذه الجملة أعماقى كما لو كان قد لفظها شخص آخر بجوارى ، دخلت كما هى فى صيغة الماضى : قد فات الأوان ، لقد فارقت الحياة . تصاعدت هذه الجملة من أعماقى ، من جزء من كيانى ، من جزء بعيد جدًا ومتوار فى الأعماق . لم تكن تلك الكلمات ثمرة تفكيرى . كيف يمكننى أن أعبر عن ذلك ؟ إننى قد تذكرتها . رأيت أحمد بوجهه الملىء بالتجاعيد تحيط به لحيته المتناثرة المميزة للفلاحين المسنين ، وبنظارته المكسورة وغير المستقيمة على أنفه ، وعيناه وقد أوصلته السنون إلى حافة العمى تنظر إلىّ من خلال هذه السحابة الرقيقة من البخار المتصاعد من القدح الأبيض الذى كان يمسك به بين يديه كما لو كان قربانا نفيسا ، كان أحمد يجلس القرفصاء

ببساطة وكأنه مومياء حية تنظر إلىَّ : مومياء منتؤمنحات . اندفعت أفكارى نحو عجوز ربما قد صعد لأجلى أنا وحدى من أعماق الزمان ، من أغوار الزمن الغابر ، والذى يربطه بى نوع من التناسل لا أدركه ، وينظر إلى من أعالى الزمن كما لو كنت ابنا له . هذا هو ماكنت أفكر فيه ، وفى هذه اللحظة بالذات وصلت إلى هذه الكلمات : قد فات الأوان ، لقد فارقت الحياة . بدأت أو بالأحرى شعرت وكأن أحدا يقص على هذه القصة التى كنت أتعرف عليها عندما كانت الكلمات تتجمع وتترابط كما لو كنت أعرفها عن ظهر قلب . وفى الواقع إننى أجتهد لأنساها على مدى أربعين عامًا : كنت أسترجعها كما لو كانت قد ظلت تحتل ذهنى طيلة كل هذه المدة وهى تبدو جديدة كما كانت عندما كنت أدونها فى كراسى الصغير .

كانت معلمتى مدام روسى تقرأ دائمًا موضوعات الإنشاء التى كنت أكتبها بصوت عال على تلاميذ الفصل ، وكان هذا بمثابة مجد لى ، وكانت ضحكتها الرنانة ترافق قراءة تخيلاتى الصاخبة ، مما كان يثير حولى ضجيجا يعبر عن استحسان جماعى كان يسرنى جدا . ولكن موضوع الإنشاء هذه المرة كللنى بالمجد بصفة خاصة ؛ لأنه نشر فى جريدة المدرسة ، وكان يقرأ أمامى على أعمامى وأخوالى الذين كانوا يأتون لزيارتنا أحيانا ، أو حتى على صديقات والدتى وعلى جدى . وكان هذا

الموضوع ينبوعًا متجدداً على الدوام من السرور والمديح . إن عدم إطاعتى لأوامر والدتى كما تخيلته قد أصبح العنصر الأساسى لهذا المجد الذى أحرزته . كنت صبيا هادئًا ومطيعًا إلى حد بعيد . إننى لم آكل أبدًا من المربات المحرمة ، ولم أقطف الأزهار من أجمة الزهور . لاشك أننى لم أجد فى حياتى كصبى صغير حالة واحدة من العصيان جديرة بأن تروى فى موضوع إنشاء . أو ربما كنت فى حاجة إلى نوع من أعمال عصيان أعظم وأروع ، إلى حالة مثالية من العصيان صارخة ولها جانب جذاب ، تؤديها شخصية بطولية مغامرة ، يطبق عليها العقاب . أما أنا ، فقد تخيلت نفسى فى دور جامع الفطريات . كنت أغادر المنزل حاملاً سلتى ، وكانت والدتى تعدل وضع قبعتى المصنوعة من القش على رأسى على عتبة المنزل ، وكانت تقول لى (هنا يادكتور تتبلور كل الأمور) : إياك أن تذهب إلى حقل الأفاعى ، هل فهمت ؟ لأن الأفاعى كانت لها جحور فى حقل واحد أتذكره جيدا : كان مربعًا ومسورًا بسياج من الأغصان الشائكة ، وكانت الأعشاب فى هذا الحقل أعلى قطعا ، والفطريات أكثر عددا وأكبر حجما وأجمل شكلا تزينها قبعات صغير مستديرة عليها نقط حمراء مثل حشرة الذعسوقة . وكان هذا الحقل ملكًا مشتركًا تقتسمه الفطريات والأفاعى . فكان يحوى فى آن واحد كل ما هو مرغوب وكل ماهو مرعب . كنت

أقول لنفسى . رغم ذلك سوف أذهب . لاشك فى أن عصيانى هذا كان يجب أن يكون مرتبطًا بالخطر لكى يبدو أكثر بطولة وعظمة . ليس هناك أية مخاطرة فى أكل المربات المحرمة ، ربما كنت أتفادى أن أروى حالات العصيان الحقيقية لمجرد تفاهتها . فكنت أنساها ، لم يكن لها أى وزن ولا أى قيمة كمثل يحتذى به ، كانت مجردة من الجمال الأدبى بقدر ماكانت تتيح لى ثقافتى الأدبية فى هذا الوقت من تقديرها ؛ إذ لم تكن تتعدى مستوى كتابات مؤلفة حكايات الأطفال الشهيرة الكونتيس دى سيجور . إن مخالفة القانون لاتعنى شيئًا ، والعقاب الذى يوقعه من يسن القوانين لايعنى شيئًا ، إن ذلك فى منتهى البساطة ، ويمثل التعسف ، وكنت أقول لنفسى : رغم ذلك سوف أذهب . وكنت أذهب لأتحدى الموت ، لم أكتف بمخالفة نصيحة أمى التعسفية : إننى كنت ثائرًا على نظام الأمور . إن العقاب لعصيانى لن يكون علقة ساخنة أو حرمانى من الشوكولاته مع الوجبة الخفيفة ، ولكن العقاب سيكون الموت . إن عقابى كان مدرجًا فى طبيعة الأمور ، وكانت كلمة والدتى تتفق مع نظام الأمور ، كانت أمى على حق بلاشك إذ كانت هى نفسها ملتزمة بقانون أعلى ينظم مسيرة الكون ، وأنا كنت مثل أجممنون [1] عمره ثمانى سنوات ، أو أوديب [2] فى مثل هذه السن أيضًا ،

(١) زعيم زعماء الإغريق فى حرب طروادة .
(٢) ملك طيبة ، قتل أباه وتزوج – على غير علم منه – أمه يوكست .

أثور ضد القانون العام ، وكان قـانون الكون هو الذى يقتضى أن تلدغنى الأفعى ، لـقد ألقـــي بسلـــتى ، وأسـرعت نحو المنزل ،ووصلت عند درجات عتـبته ، ووقعت كمـا لو كان ضروريًا أن أثبت حـالة عصيـانى والعقـاب الشرعى لهـا ، لقد وقـعت على درجـات السلم ، وهرع والداى نـحـوى ، وعندئذ ظهـرت هذه العبارة : قـد فات الأوان ، لقد فارقت الحياة ، فكانت تتـصاعد كالمراثى الكبـرى كمـا كان يردد الكورس فى التمـثيليـة المأساوية القديمة هذه الانتحابة الجنائزية : وا أسفاه ! وا أسفاه ! أيها الأمير الجدير بالرثاء . يا لهـا من كارثة محزنة تدمى روايتـها القلوب ، ياله من حزن غامر ومأساة مبكية ! ولكن يا دكتور هل أمكننى أن أكتب ذلك حـقًا ؟ هل أمكننى أن أبتـدع ذلك عندما كان عـمرى ثمـانى سنـــوات ؟ لم أعد أدرى . إن هذه الجـملة موجـودة فى الواقع ، وهى التـــى طبعت فى جـريدة مـدرستى ، كنت قـد نسيتهـا ، لقد أضعتها ، كان أحمـد ينظر إلى هذا العجوز ، كان ينظر إلىّ ، وشعرت بشىء مـا يصعد من أغوار أعمـاقى ويتخذ صيغة هذه القصة . كان يبـدو كما لو كانت سنه المتقدمة هى التى جعلت هذه الكلمات تطفو على سطح الذاكرة . ولكن هنا ينقص شىء ما . شىء يفتقر إلى العدالة . هـــل رأيت هذا العجوز . إنه كان جـالسا فى ذات المـــكان عندما حـضرت ، وهـــو يكاد لايتـحرك أبدًا ولايتكـلم . وتقتـصر وظـيـــفتـه على تحـضيـر الـــشـاى ، وعلى العـزف على النـــاى فـــى المسـاء بـأصابعـه

الهزيلة وإعادة الأشياء إلى مكانها . إنه يجلس القرفصاء فى ركن من الحجرة ، وعندما ينهض يفعل ذلك ليضع فى مكانه شيئًا موجودًا فى غير مكانه ، إنه يمثل النظام ، ووجوده يعنى أن كل الأشياء فى نصابها . إن قدح الشاى الذى يجلبه لى يمثل بداية الحفل اليومى المسائى للنظام المتبع لاستقبال بداية الليل ، إن أريج الشاى المعطر بالنعناع يدل على أن النظام قد عاد وأن مرور الوقت ينسجم مع نظام الأمور . لذلك عندما رأيت أحمد ينظر إلىّ فى صمت ، بدا لى أن هناك قوة هائلة تثقل علىّ ، وأنى تجردت من إرادتى ، وشعرت وكأننى أدخل أو أعيد الدخول فى مكان لم أعد مسئولا فيه عن نفسى ، مثل الجسم المغمور فى الماء الذى لم يعد فى حاجة لقوة عضلاته ليجعل أعضاءه تطفو على سطح الماء . لايمكننى أمام أحمد أن أفكر فى أى شىء ، هل تفهم ذلك ؟ وبينما كان ينظر إلىّ بدأت أستعيد تفاصيل هذه القصة المنسية . والآن ها أنا أسالك : لماذا لم أمت من التيفوس بعد أن شربت من مياه النيل ؟ لماذا لم تنكسر ساقى ؟ لماذا لم أسقط من أعلى العمود المربع ؟ لماذا جئت لأعمل هنا فى هذا الركن المجهول من بلاد النوبة الضائع بين الرمال ونهر النيل ؟ هل أنا عالم مصريات ؟ كنت أجهل منذ سنتين كل شىء عن مصر . إن مهنتى هى إعادة بناء المعابد التى هدمها الزمن ، تلك المعابد موجودة فى كل مكان ، فجزيرة صقلية مليئة بها ،

وتونس كذلك ، والمكسيك ، والهند ، وجاوا أيضًا . وتوجد فى بورما معابد كثيرة تفوق ما يمكننى إعادة بنائه فى مائة سنة . لقد تركت كمبوديا واخترت هذا المكان حيث لايمكننى مجرد ممارسة مهنتى . كل المطلوب منى هو البحث عن الحجارة ، واستخراجها من الرمال ، عدها ونقلها إلى أعلى المنحدر الصخرى للنهر لكى لاتغمرها مياه السد . تلك الأعمال ليست مهنتى ، وهذا البلد ليس بلدى ، إن بلدى هو الشرق ، الشرق الآخر ، الشرق الأقصى ، ليس هذا الشرق ، ماذا جئت لأفعل هنا ؟

ما هذا الذى أرويه ؟ بلدى . . . ما هو بلدى ؟

دكتور !

استمع إلىّ ، هذه وصيتى ؛ إننى لا أملك شيئًا كثيراً لكى أورثه ، هل ترى هذا الناى الصغير الذى أمسكه فى يدى ؟ سوف تجد النايات الأخرى فى الصندوق الموجود على يمين المنضدة . إننى أتركها لك ، كنت أحبها ، فبالله عليك لاتبعثرها ، لقد عزفت طوال حياتى على هذه النايات ، ماعدا واحدًا منها ؛ لأنه مكسور : وهو مصنوع من الفخار ، وقد وجدته فى تلتيكباتل وسط جثوة أى بناء حجرى مخروطى الشكل مقام فوق أحد القبور . هذا الناى يعود إلى حضارة

مفـقودة ، ولايوجد أحد يـستطيع أن يعلمنى العزف عليـه . أما أطول ناى مصنـوع من البوص الرفيع جـداً والذى به ستـة ثقوب فهـو الناى الذى علمنى أحمد العـزف عليه ، هذا الناى هدية من عجـوز نوبى كان يسـمى نخطة الخالـى كان يسكن إحـدى القرى على ضفاف الـنيل ، إلى الجنوب من هذا المكان . إن تلك القرى تعيش لمدة أربعة أشهر فى السنة عندما تنحسر مياه النهر ، وتدخل فى سبات مريح تحت أشعة الشمس طوال الشهور الثمانية الأخرى ، وقد غادرها سكانها من الرجال ليذهبوا إلى المدينة ، بينما تنشد النسـاء لأطفالهن أغـانى حزيـنة ويروى شيـوخ القرية القـصص ويعزفون على الناى . إنهم يستـعملون نايا مائلاً مماثلاً تماما لتلك النايات التى تستخدمـها الراقصات الصغيرات المنقوشـة على مقبرة نخت فى وادى النبلاء . كـان أحمد يحـضـر لـى النـاى - دون أن يتكلم - كل مسـاء فى حـفل الـشاى التـقليدى ، ثم يقوم بتلقينى مـعلومات عن موسيقاه . هذا أيضًـا كان داخلاً فى نظام الأمور ونظام حياتى الذى يتعـدى كـيانى بطريقة لانهائية . على هذه الشرفة المبنية من الـصلـصال والمغـطاة بجـريد النخيل ، مقـابل ميـاه النيل الفضـية الداكنة التـى تتـراقص فى ضوء القمـر أمام تلك الصحـراء الخالدة التى لاتتـغيـر ، كنت أمسك بيـدى ناى الفـراعنة ، وكـان أحـمد يـعلمنى نوعًـا مـن الموسـيقى لم تتـغيـر فى هذه القرية القـبطية ولم تتلـون أنغامـها

وألحانها منذ عشرات القرون بأى تأثيرات من الموسيقى العربية أو البيزنطية أو الأوربية . وبطريقة نفخه فى الناى وتحريك أصابعه كان أحمد يعلمنى أصول نبضة مختلفة ، ويعلمنى كيف أوجه نفسى ، ويرشدنى إلى اكتشاف علاقات أخرى بين العلامات الموسيقية ، وبين الأمور ، وبين الكائنات . مع التنفس الذى هو أساس حياتى كنت أتعلم أن أمدد الزمن حسب نظام اقتصادى آخر ، وكنت أنخرط فى اتجاهات مجهولة ، ويمكننى أن أقسم لك أننى بقضاء ساعات طويلة من الليل مع هذا الرجل العجوز الأمى ، تعلمت عن الحياة فى عصور مصر القديمة أكثر مما تعلمته فى قراءة كتابات ماسبيرو وفنديه ودريتون دايفيس وأرمان .[1] لقد علمنى كل شىء ، كنت أعاود التوغل معه فى أغوار تاريخ هذا البلد ، مصر خالدة والحية فى تراثها ، وكنا نصل إلى أعماقها الأكثر غموضًا والتى لم تكن الكتب تعرف شيئًا عن أسرارها ، وكنت أنا أعيد تنسيقها وتلحينها وأدخل عليها زغاريد من الأنغام التى كانت تنبعث من الأنفاس المتصاعدة إلىّ من أعماق القرون الغابرة . إننى أترك لك كل شىء يادكتور ، كل ماهو موجود فى هذا الصندوق ، تلك النايات اعتن بها ولاتبعثرها ، إن وجودها معًا (لاتبتسم يادكتور) جعل منها نوعًا من السمفونية لحنتها أنا ، يوجد بينها ناى مشقوق

(١) أعلام بالآثار المصرية لهم العديد من المؤلفات .

بسـبب جفـاف الجـو فى هذا البلد ، إذ إنه كـان فى حاجـة إلى الرطوبة الدافئـة واللطيفة التى تنبـعث من المستنقعـات مع الضوء المنعكس على مياه مـزارع الأرز الواقعة على سفوح جـبال جزيزة بالى . كـان هذا الناى آتيا من عـالم آخـر ، فانــكسـر فى هذا العالم ، كمـا حدث لى تماما عندما جئت هنا ، إذ إن فى الحياة بعض الفترات الانتقالية لايمكن اجتيازها دون أن يموت شيء ما . إننى كنت أحتـفظ به تذكاراً من إيدا باجوس بهراتا الـذى كان قد نحتـه لى عندما كنت أسكن هنـاك ، وكان يعلمنى العـزف عليه بحنان ، وكذلك من أجل الراقصة الصـغيرة فى سوارتى التى كان يحبها صديقى رولف . لكننى كنت أعـزف بطريقة سيئة . . . إذ إننى كنت أقلد العازفين فـحسب . وكل واحد من أسـاتذتى كان يقتنى نايا واحـدا كما كـان له قلب واحد . وكل منهم كان يعـبر عن شعـوره فى نطاق سلم موسيقى واحـد . إننى لم أستطع أبدا أن أفعل شيـئًا ببعض النايات سوى أن أعزف عليـها بعض الأنغام التى كانت تعيد الذكريات إلـىّ أنا وحدى . وأنا أمتلك نايا أصغر حـجمـا من سائـر نايات المجمـوعة ، وهـو مصنوع من الغـاب وملفوف حوله خيوط حـمراء . من هذا الناى لن يستطيع أحد أن يحصـل على ألحان تقـترب من تلك الألحـان المعجزة التـى كانت تعزفـها المرأة التـى حصلت عليـه منها . كـانت امرأة عـجوزاً ، قصيـرة القامة ، من إحدى القرى فى شمـال لاوس بجوار سينج

كوانج حيث كنت أعمل . كان اسمها ننج سوى ، وكانت لها ضحكة صغيرة مرتعشة ، وأعتقد أنها كانت مصابة بمسة خفيفة من الجنون ، كانت تعزف بمفردها أمام منزلها ، فتعزف لنفسها ، أو كانت تعزف في الميدان جالسة على حزمة من الغاب ، وكانت وهى تعزف بطريقتها أغرب وأمهر عازفة استمعت إليها على الإطلاق فى كل أرجاء آسيا . كانت تغنى وتعزف على الناى فى آن واحد . وكان من الصعب على المرء أن يميز بين صوتها وبين صوت الناى . كانت تتصاعد من صدرها شحنات من الأنغام وتنتهى بترجيف ألحان الناى . وبصوتها الضعيف الرفيع كانت تقوم بتحويل اللحن ، فيتفتح وكأنه تطريز خفيف جميل تجيد أصابعها أداءه على الناى ، كانت ترنم أحيانًا كلمتين أو ثلاثا ، وكان آخر مقطع من اللحن يتحول إلى زغردة تؤديها على نايها . إنها كانت تبدع ، وكانت قد اخترعت فنها بمفردها ، كما كانت تتابع منذ عشرين عامًا ، يوما بعد يوم ، وترنيمة بعد ترنيمة ، للحصول على قصيدة شعرية غنائية مصاغة من ست علامات موسيقية فقط . وكانت القصيدة طويلة كحياتها ، وساذجة ، وفقيرة مثلها هى التى لم تكن تملك شيئًا سوى منديل رأس مشبت فوق رأسها الحليقة كما ينبغى أن تكون رأس أرملة فى بلدها ، ورداء السارونج ، وسلة بجانبها . وهى لاتطلب شيئًا ، ولاتتوسل ، ولاتحصل على مال ؛ حيث إنها

لم تكن تعزف نظير أجر تتقاضاه . كان ذلك سهلاً للغاية ، وفى نفس الوقت يمت إلى معرفة عميقة ، وإلى براعة مذهلة فى التحكم بالصوت وبالتنفس وبالأصابع . . .إننى لا أقول إنها كانت عازفة ماهرة : بل إنها كانت الموسيقى ذاتها ، كانت أورفيوس [١] متحولاً إلى بوسيس [٢] . لم أمر أبدا بقرية بنج كوى تالوم دون أن أتوقف لأستمع إليها . وعندما كانت ترانى قادما ، كانت تضحك بفمها الذى قد خضبه باللون الأحمر مضغ نبات البيتيل ، كانت تمزح مع الفلاحين الذين كانوا يضحكون هم أيضًا بصوت مرتفع وينظرون إلى وينفجرون ضاحكين . أعتقد أنهم كانوا يقولون إننى مغرم بهذه العجوز الشرماء ، لقد كان هذا صحيحًا ، وكنت أضحك بدورى ، إننى لم أعطها مالا قط . وفى يوم من الأيام استقبلنى أهل القرية استقبالا غريبًا ، كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ويؤدون حركات نفى ، وصاحبونى فى جو صاخب حتى منزلها ، ولكننى كنت على علم بوفاتها : لقد ماتت قبل شهر من قدومى . واشتريت الناى الذى كانت تعزف عليه من حفيدها تاوسى : لم يكن باستطاعة أحد أن يعزف عليه الآن ، أليس كذلك ؟ إننى كنت أعزف لنفسى أنا

(١) أورفيوس – فى الأسطورة الإغريقية – موسيقى تبع زوجته يوريدس إلى " مثوى الأموات " ، فأجاز له بلوتو – وقد سحر بألحانه – أن يخرجها من ذلك المثوى شرط ألا ينظر إلى الوراء ، ولكنه فعل ذلك فى اللحظة الأخيرة ففقدها .

(٢) بوسيس زوجة فيليمون فى الأسطورة الإغريقية ، حولا بعد وفاتهما إلى شجرتين متجاورتين فتعانقت غصونهما رمزا للحب المتبادل بين الزوجين .

وحدى على هذا الناى ألحـــانًا تحتوى على كل شاعرية نانج سوى ، المجنونة العجوز . إنها سوف تموت للمرة الثانية معى بعد قليل ؛ إذ لن يبقى على قيد الحياة - نهائيًا - أحد يعرف مَن كانت نانج سـوى ، أورفيـوس العـجوز ، أمـا أنا فكنت أعـرف . إن هذا التفكير لا يلخو من البـلاهة ، أليس كذلك ؟ أن أتخيل أن هناك شيئًا ما يـنتمى إليها مازال حيا بصحـبتى ، وأنها لم تمت تماما ، وأن الذكرى . . . بل هنــاك أفكار أكثر غباء من ذلك . أعتقد يا دكتور أننى أريد أن أبكى الآن ، وأشعر بأن الدموع تملأ صدرى ، أما هذه الدمـوع فليس مصدرها شـفقتى عـلى نفسى ، أنا الذى أحتضـر أمـــامك ، بل شفقتى على امرأة عـجوز لم أكن أعرف حتى لغتها ، ولم أتحدث إليهـا أبدا . إن ذلك أمر غير معقول ، فـالموت هو الموت ، هذا أمـر واضح وبسيط ، عنـدما تكتـشف بواسطة أجهـــزتك أن جسم الإنسان لم يعد فيه أية حركة ، وأن لا شيء ينبض فى صـدره ، وأن كل شيء أصبح الآن هامـدا ، وأن المصنع الصـغـيـر قـد توقف عن العـمل وعن الإنتـاج وعن التحـويل ، فذلك يعنى نهاية كل شيء . وما تبـقى خلاف ذلك يمت إلى الشعـر . الخلود حلم من أحلام الأحياء ، وهـــو الـتيه الذى تتسم به مصر بما فيها من آلاف بل ملايين الجثث المدفونة فى الرمـال ، والمتجـمـدة تحت الأربطة الجنائزية ، ومـعـــــهـا كل كنوزها بعد أن استبدلت بعيـونها أحجار العــــقيق والبـــلور ،

فبـاتت متفـتحة فى الظلام إلـى الأبد ، وحولها هذه الرسـومات الرقيقـة لراقصات رائعات الجمـال ، وهذه المحاصيل والموائد التى لن يراها أحـد غـيرى أنا ، عـالم الآثـار الذى ينـقب عـنها فى الرمال . . . منتـئ منحات انهض أيها الحى ، انهض لتعيش ، فإنك لـم تمت . أيها الرجل العجوز الأسود ، إنك ميت ، إنك مـيت بلا أدنى شك . لقد تحـققت أنا من ذلك ، فـأنت لست إلا جثة مـتيبسة منذ أربعين قرنا ، وقـد نجوت فقط من أن يصيبـك العفن مـثل الآخرين . فيم كنت تفكر عـندما كنت ترى نفسك حيا سـعيدا أو تعيسا بجوار زوجتك الحـسناء نيفرحوسنت التى رسمت صـورتها على حائط مـقبرتك ، وقـد وضعت على رأسها هذا الشعر المستـعار الغريب ، الداكن السواد ، الذى يتدلى أسفله قرط من الذهب ، وتزينت بالعقد الكبير الأزرق الذى يعلو نهديها ، وظهرت إحدى عينيهـا الكبيرتين وكأنها تسبح فى الرسم الجانبى لوجهها كسمكة رائعة الجمال ؟ إنها تضع يدها بحنان على كتـفك ، بينما يـصطاد ابنك البكر البط البرى ، وأخـذت بناتك الصغـيرات ينحنـين بأجسامـهن العارية على سـطح المستنقـعات المتموجة ، وبينما أخذ خدمك النشيطون يجمعون العنب ويعدون حزمًا لاحـصر لها من النبـاتات ، وكاتبك يحصى محـاصيلك ، وراقصاتك يشرعن فى الرقص وهن يعزفن على العود وعلى الناى خلف عازف القـيثار الضـرير . ما الأمـور التى كنـت تفـكر

فيهـا ليلاً يا منتؤمنحات ، ياحـاكم الولاية ، وقد أسندت رأسك على مضـجعك المطعم بالعاج ؟ كنت تعـتقد أن وراء هذه المقـبرة التى أخرجتك منها كان يوجد الإله أوزوريس [1] ، والإله أنوبيس [2] معه ميزانه ، والإلاهة معات [3] ، وتحوت المسئول عن محاسبة روحك . كنت تعـتقد أنك أنت منـتؤمنحات حـاكم الولاية إلى الأبد ، والمسئول أمـام قومك وأمام الآلهة . كما كنت تعـتقد أنه لاشـــىء يمكن أن يـزول ، لا الأفكار التى تـخطر علـى ذهنك للحظة ، ولا الأحـاسـيس التى تراود فـؤادك : وأن كل حـركـة تؤديـــهـا نكوص عنها ، وأنك أنت المسـئـــول عنهـا والمحاسب عليها . كنت تعـتقد أن وجهك الآدمى ، أى هذا الوجـه البشرى وكـذلك وجـه تمثـالك غيـر القـابل للفنـاء - كانا بمـثابة كـيـان منتؤمنحـات فى آن واحد وإلى الأبد . كنت تعتقـد أيضا أن كل دقيـقة من حياتك لم تكن قطـرة واحدة مقدراً لهـا أن تتحلل فى بحر الحياة وحسب ، بل إنها أحد العناصر التى تدخل فى تكوين الإنسـان ، وهذا الإنسـان هو أنت . هـل هذا هو السـبب الذى يجـعل بـاسـتطاعـتى الآن أن أتحـدث إليك ؟ لقـــد مـت يا منتـؤمنحـــات ، ولم تتـرك لى سـوى هيكلك العـظمى وجلدك

(١) أوزوريس : الإله الحارس للموتى عند المصريين الأقدمين .
(٢) أنوبيس : إله الدفن عند المصريين الأقدمين ، يدخل الموتى فى العالم الآخر .
(٣) معات : إلاهة الحق والعدالة .
(٤) تحوت : إله عند المصريين الأقدمين رأسه كرأس الإيبيس أو كرأس كلب .
اخترع الكتابة ، وهو الذى يزن نفوس الموتى .

وشعرك وأسنانك المتآكلة ، فضلاً عن اليقين الذى كأن يملأ كيانك إلى الأبد، إنك أنت المسئول عن نفسك إلى الأبد ، وكان ذلك يجعلك لاتشبه أى مصرى آخر . حتى النحات الذى شكل وجهك على تمثال روحك الموجود وراء تابوتك الحجرى ، كان يعلم أن من المستحيل أن تشبه أحدا ، وأنك كنت أنت ذاتك ، وأنك كنت خالدا ، وكان عليه أن يجد ويبين ما الذى كان فيك يمثل شخصيتك بالضبط ، ويظهر أفضل ما كان يمثل صفاتك . ليس ما كان خاصًا بك وعابرا فحسب ، بل كل ماكان يمثلك أنت حقًا ، متجاوزًا الواقع والزمان ، فيمثل الكمال النهائى لمنتؤمنحات ، حاكم الولاية المسئول عن نفسه أمام قومه وأمام الإله أنوبيس ومعات وتحوت . لقد أنجز النحات مهمته الفنية ، نحت وجهك كما أعرفك . ليس هيكلك العظمى هو الحى الآن أيها الميت المتيبس ، إن الحى هو الوجه الذى صنعه لك النحات بيده . إذن ، فأنت تعيش الآن ، إننى أعرفك ، أتعرف عليك ، وأتحدث إليك أيها العجوز المعتوه ، لقد فزت ، انهض إنك لم تمت .

هل تسمعنى يادكتور ؟ إننى أهذى ، ويبدو لى . . .

عندما جاء صبى ليخطرنى بأن العجوز شاك سموك قد استلقى على فراشه ليموت ، وأنه كان يطلب استدعائى ،

هرولت نحوه . كان هذا الرجل العجـوز يبلور فى شخصه كل ما كنت أحبه تقريبًا فى كمبوديا ، فى هذا البلد الذى كنت قد اخترته ليكون بمـثـابة وطن لى ، وحيث كنت أعمل مـنذ أكثر من عـشر سنـــوات . إن شاك سموك كان صـورة حية لهذا البلد ولكل ما فـيـه ؛ فهـولاء الأبطال والعـمـالقـة والملوك وتلك الراقـصـات السماويات وهؤلاء الآلهة الذين اكتشفتهم مع شو براك فى أطلال فات بريه تات ، وتلك المشاهد المرسومـة للمعارك أو الانتصارات التى بذلت قصـارى جهدى لأعـيد ترابط أجـزائها ، وأعيـد لها بالتالى حركاتها ومنطقيتها وهذه الأجزاء من الأحجار التى بعثرتها القـرون ، كل ذلك كان ينبـعث من أقوال وأيدى العـجوز شـاك سـمـوك . كـان هو الـذى يصنع هذه الدمى من جـلد الثيـران لتستخـدم فى مسرح خيال الظل ، كان هو مـخرج هذا المسرح ، كما كان يدرس الموسيقى للصبية . وعند حضورى إلى كمبوديا ، أمضيت ساعات طويلة أنصت لأحـاديثه وغنائه وإلقائه للقصائد . (لاتستطيع أى كلمة من تلك الكلمات أن تعبر عن كل الذى كان يحدث فى الواقع : فذلك يحتاج إلى كلمة واحدة يمكنها أن تعبر عن كل ذلك فى آن واحـد ، وتعبر أيضـاً عن سائر نشـاطاته من تقليـد وتمثيل ورقص ، كـما كنـــت أراه يفـــعـــل فى بـــادئ الأمر) . إن فـكرة موته لم تكن تمثل بالنسـبة لـى اختفـاء رجل عجوز كنـت أحبه ، وهو والد شو براك زمـيلى فى العمل فـــى

فـات بريه تات . كانت تمثل نهـاية عـهد ، نهـاية عهـد الملاحم الأسطورية . إن صمت شاك سمـوك قد يكون السبب فى صمت هؤلاء الأبطال وهؤلاء الآلهة . إن التمـاثيل والأجزاء المنحوتة من المعابد التى عـملت فيهـا قد تتحـول من جراء موته إلى مـايسمى بالآثار ، فقد كان لهذه المعابد فم تتحدث به فتذيع قصائدها على العالـم . . . طالما ظل هذا الراوى العـجوز على قيد الحـياة . لقد ذهبت إليه مـهرولا ، ومكثت بجانب مضـجعه ، كمـا نقول فى فـرنسا ، إلا أن هذا التـعبـير غـيـر دقيق لوصف حـاجز المرقـد المنخفض المصنوع من غاب الهند المجـدول ومن قطعة من القماش القطنى المزخرف بالمربـعات . إننى اندفعت نحـوه بعاطفة جيـاشة ربما بدت مثـيرة للسخـرية أو غير مناسـبة . كنت أتوقع أن ألقى أقاربه الذيـن كانوا يحبـونه حبًـا جمًا ويـحيطون به وقد أثقـلتهم الأحزان - ومـعهم القـرويون والجيران - مـتأثرين مـثلى بالحدث الأليم . إلا أننى ذهلت عندمـا وجدت منزله كـما كنت أراه كل يوم طوال السنين المـاضيـة مليـئًا بـالناس وبالأولاد الذين كـانوا يضعـون أصابعـهم فى أفواههم ، وبالبنات الصـغيرات حـاملات إخوتهن الصـغار على أفخاذهـن ، وبالرجال الجالسين القرفـصاء يتجاذبون أطراف الحـديث ، بينما أخذ الصبيـان يتدربون فى أحد أركان الحجرة على العزف على بعض الآلات الموسيقية ؛ لأنه بعد أن أصبح شاك سـموك متقدما فى السن وعـاجزا عـن العـمل

فى حقول الأرز لم يعد يغادر هذا الكوخ المقام على جانب الطريق والمصنوع من الخيزران والذى كـان يستعمله محتـرفا ، إلا لحضور بعـض التمثـيليات : أما الآن ، فقد أصبح كوخه مسرحًا . لم يكن يمر أحد أمامه دون أن يتوقف . كان يعيش محاطًا بجمع من النساء حـاملات الأطفال وهن يرضعـن ويمضغن نبات البيـتيل ، ومن البنات الصغـيرات والصبـية وهم يتمـرنون على العزف على الآلات الموسيقية المعروفـة لديهم والمسماة رونئات اك وكونج توش ، ومن الرجال الذين يحضرون ليجلسوا بعض الوقت ليتحدثوا . وكان يتبادل أطراف الحديث مع كل هـذا الجمع فى حوار متفكك لانهـاية له ، تقطعه الضـحكات من حين لآخر . كـان كل شىء يمتزج عنده : الحـياة ، وأحوال القرية ، والمداعبـات التى لامعنى لها ، والموسـيقى ، والقصص البطوليـة التى كان يعيش أحـداثها مستـسلما لخياله ببـساطة ، ومحاطا بالأبطال والآلهـة التى كانت تربطه بهم يوميًا علاقات فى غاية البساطة كالتى كانت تربطه بأهله وزواره الذين كـانوا يتوقـفـون عـند مـروروهم بمنزله . وكـان يقضى حياته وهو يحاور الرجال ويجـعل الآلهة تتحدث ، بينما كان يعمل بواسطة نصل ومجـوب لمعالجة جـلود الثـيران التى كـان يصنع منها العـديد من الزخـارف. ومـن الأشخـاص ذوى الأشكال المسـتديرة والحركـات المتـكلفـة التـى قـد تتـحول على الشـاشة المشـدودة أمام النار - وعلى مـدى ليال مـتتالـية

. . . . .

لاتحصى - إلى مئة حلقة من قصص رامايانا أو ماهابهاراتا . كان يصنع أشكال هؤلاء الأشخاص بمنتهى الحنان ، وكان يتحدث إليهم باستمرار ، ويتقن رسم الملامح الساحرة للإلاهة سيتا وهو يصنع لها نهدين مستديرين كأنهما تفاحتان ، مستشهدا بالحضور ليعترفوا بجمالها . كان يوبخ بعنف العملاق ياك إيك ، وينهره ويتنبأ له بكوارث رهيبة سيتولى هو إخراجها . وكان الأطفال يلتفون حوله مهتزين طربا لمدا عباته الساخرة للقرد الأسود فليفات . كانت حياته مسرحًا أو نوعًا من الكوميديا دللارته الإيطالية لاينتهي عرضها إلا عند هبوط الليل ، عندما كانت الأساطير تتخذ فيها يوميًا شكلاً مبسطا تمتزج فيه وقائعها بأحداث القرية اليومية ، مندمجة بالملحمة التى كان يرويها . كان ذلك يسحرنى ، كان عليّ أن أحذر المظاهر لو كنت أريد أن أتحاشى الانغماس فى مايدعو للسخرية ، وأن أتعلم - ويالللخجل - أن عدم الوضوح الذهنى واختلاط الأنماط الفكرية لاوجود لهما إلا فى تفكيرى المنهجى العقلانى . كان يجب على أن أعير قسطا أكبر من الاهتمام لتلك اللحظات التى كان يضع فيها مجوبه أو محكه جانبا ليعطى الأطفال درسا ، بينما لاحت فجأة - وللحظة واحدة - الجدية على ملامح وجهه الملىء بالتجاعيد على أثر الضحك :

- إن الجان هم الذين علموا البشر الموسيقى . لذلك تختلف الأصوات الموسيقية عن ضجيج الجلبة التى يحدثها الإنسان

وحيـوانات الغابة . إن الآدميين يحـدثون ضجيـجًا ، والقـــرود أيضًـا ، والمطر كذلك ، ولكـن الموسيـقى ليســت بجلبة كـالتى يحدثهـا المذكورون ؛ لأن الجان هم الـذين علموا الإنسان قـواعد عزفها .

إن الابساراس اللواتـى علمن النساء الرقص . ولهـذا السبب فإن حركـات الرقص تختلف عن تحركات الرجال ، كـما تختلف عن تحركـات الحيـوانات وتحركات الطيـور . إن الرجال يســيرون ويعملون ويضربون . والحـيوانات تجرى وتقفز . أمـا الطيور فهى تطير وترفرف بأجنحـتها وفقًا لإيقاع مـا . ولكن حركات الرقص تنفرد بالجمـال ؛ لأن الابساراس هن اللواتى علمن النساء إياها ، والابساراس قادمات من السماء .

وسرعـان ما كـان ينفجر بالـضحك ويعود إلى الانئـه وينظر حوله بمرح شـديد كما لو كـان يريد أن يخلع عن حكمه مســحة الجدية .

إن النساء جميلات ، والابساراس أيضًا نساء جميلات . إنك تحب النساء الجميلات ، أنت ياليف شوان ، يالك من حيوان قذر . . .

ولكننى كنت أستـشف فجأة شـيئًا من روح الموسـيقى . إن الموسـيقى لا تعـتبـر موسـيقى إلا إذا كـان صوتهـا بعيـدًا عـــن الضـجيج . ولاوجـود للفن فى الرقص إلا إذا كان يخـتلف عن

السير ، كما أنه لاوجود له إلا إذا كـانت كلمات القصيدة تختلف عن تلك التى نستخـدمها فى حياتنا اليومـية . ولكننى لم أكن قد استـوعبـت بعد سـوى نصف أقواله ، ولم أتبين عندئذ عـواقب كلماته . إن المظاهر كانت تخدعنى إلى حـد بعيد . . فكان عليه أولاً أن يلقننى درسا ملائما لكى أسـتوعب ذلك . كانت عشرات الرسومـات المفرغـة فى الجلد تتراكم حـوله فوق الحـصـــائر - بشكل يمت إلى الفوضى - أو فى داخل سـلال مجدولة . وكنت أراه وهو يحركها بلا كلفة ، ويتحـدث إليها ، يصب عليها سيلا لاينضب من التعـبيرت الساخرة . لقـد رأيته يقص ويشكل نماذج لكل نسوة حريم العملاق ياك إيك وكـذلك أفراد جيوش القردة . كان ينجـز كل ذلك بمنتهى البسـاطة . . . فطلبت منه أن يمثل لى فى هذه اللحظة - فورا وبدون أى اسـتعداد - أحـد المشاهد ، أن يمثل شيـئًا قد لايتجاوز المشـاهد التى كان لايتوقف عن إخـراجها طيلة ساعات النهـار . إلا أن سؤالى تركه صامـتا ، فطأطأ رأسه واستأنف عمله فى قص الجلود ، وكـأننى لم أتحدث إليه ، وخيم حولنا جو من الصمت . ثم قال لى شـو براك بحرج - بعد فترة طويلة - إن ذلك لـيس ممكنا . وراح يبـحث عـــن مبـــررات غامـضة ، مدعيـا أن أباه كان متـعبا ، وأنه لايملك الأشـياء التى يحتـاج إليهـا للتمـثيل ، فلم ألح فى طلـبى . وبعدها تصـاعد الضجيج شيئًا فشيئًا حولنا من جديد ، وقد ظللت أنظر إليه بضع

لحظات وهو يعمل - بين ضحكات الأطفال وثرثرة النساء وقوقأة الدجاج - قبل أن أنسحب . بعد مرور قدر كاف من الوقت عدت إلى منزلى وأنا أشعر بأننى أسأت التصرف دون أن أدرك ذلك بوضوح ، وباشرت العمل . وبعد مضى ثلاث أو أربع ساعات طرق شو براك الباب ، وكان يبدو عليه المرح ، وقال لى إن أباه ينتظرنى ، وكان فى الواقع ينتظرنى فى حقل للأرز خلف الباجود أى المعبد ، فأدركت من نظرة واحدة أننى قد طلبت منه شيئًا غير لائق ، فأخذت أتبين إلى أى حد من الغباء أوصلنى جهلى بهذه الأمور الأساسية . كنت طلبت منه أن يؤدى لى تمثيلية . وكان كل شىء جاهزا الآن . وأمام الشاشة المصنوعة من النسيج والمشدودة بين عمودين ، كانت توجد الآلات الموسيقية . ورأيت بعض الشموع المثبتة فى قطع من الخشب ، وأعوادا من البخور مغروسة فى جذع شجرة موز ، وبعض العطايا ملفوفة بأوراق الشجر ، وأزهار اللوتس سابحة فى الأوانى ، وأكواما صغيرة من الأرز وجوز البيتيل وجوز النخل الهندى - كل ذلك مرصوص بطريقة منظمة وجميلة . كان شاك سموك منهمكًا بين التماثيل التى رأيتها بعد الظهر فى بيته . كان يمسح بالماء المعطر على كل تمثال منها ، ثم يحيى التمثال ويداه مضمومتان فى ابتهال وهو يتلو صلاة أمام كل منها ، طالبًا بكل تواضع واحترام أن تكون الآلهة راما أو سيتا أو

ياك إيك الرهيب والمرهوب ، أو أن تتنازل لتصبح هانومان ، القرد الأبيض . وبجانبه كان يحترق البخور ويتصاعد . وهذا الرجل الصغير الذى كنت أتصور منذ أيام أنه مزيج من المحترف والشاعر والمهرج والحكيم ، والذى كان يصنع تماثيل من الجلد - أيقنت حينئذ أنه كان يخلق أدوات التجسيد . كان يتحدث منذ فترة بطريقة ودية إلى هؤلاء الأبطال والأميرات والعمالقة والقرود ، طالما كانوا مجرد تماثيل منتظرين أن تبث فيهم الحياة التى لن تأتى منه ، ولكن سوف تهبط عليهم بواسطته . ولكن التجسيد لايتم بطريقة عشوائية . يجب أن ينقلب الوضع . يجب أن يتغير أسلوب التعبير ، إن أسلوب التجسيد ليس هو الأسلوب المتبع فى المحترف . وأمام الشاشة المضاءة عن طريق النار التى قد أشعلها الفلاحون ، أخذ شاك سموك يرقص ويرنم الأناشيد الدينية بصوت غريب ، بصوت رفيع وأجش معا ، مع تصاعدات وهبوط فى النبرات وتنغيمات معقدة فى نهاية الجمل الموسيقية ، بصوت ليس صوته ، بل صوت الطقوس الدينية ، صوت نوع من الكهنة تستخدمه الأرواح عندما كانت تهبط على الأشياء .

وهكذا يادكتور أصبح شاك سموك معلمى . فبينما كنت أعلم ابنه شو براك هذا العلم الرهيب الذى كان مقدرا له أن يصبح سبب وفاته ، كنت أتعلم من هذا الرجل العجوز أشياء غامضة وغير محددة وغير سهلة . كان يلقننى مقتطفات من

علمه بطريقة متقطعة ، وكان يتحتم عليّ أن أجمعها وأضم أطرافها ببعضها لكى أعيد تركيبها . لقد أمضيت خلال هذه السنين ساعات عديدة فى منزله ، بينما كان هو يعمل ويتحدث ويعلم الموسيقى . كانت تمر أسابيع وشهور بين جملة أو قول مأثور ، وجملة أخرى أو قول آخر ، حتى يتسنى لى استيعاب المعنى كاملاً . فكانت هناك أجزاء من الأفكار والكلمات تنادى بعضها البعض ، وكان عليّ أن أبحث عنها فى ذاكرتى . كانت هناك بعض الكلمات التى ينطق بها وكأنها تائهة ، وكنت أعثر عليها وقد تآكلت وصقلها الزمن ، فآخذها لأصوغها مع كلمات أخرى كان يقولها لى صدفة فيما بعد ، أو يقولها لأحد الصبية . كان يجلس القرفصاء وهو يرسم بطرف ريشة الرسم صورة سيتا على قطعة من الجلد موضوعة على الأرض ، وكان يرسمها بخط ثابت متبعًا منحنيات كان والده وجده قد سبقاه فى رسمها بذات الجمال والدقة التى كان يرسم بها ،وكان يرفع ريشة الرسم قائلاً :

- إننى أغنى عندما تظهر سيتا ، ولكننى أضرب على الرونئات - إك عندما يظهر العملاق ياك إيك .

وكان ينبغى أن أدفن هذه الفكرة وأن أحتفظ بها ؛ لكى تعود إلى ذهنى مرة أخرى ، ذات يوم قد يقول فيه :

- هناك نوعـان من الموسيقى ، أحـدهما ينبـعث من القلب والفم والجوف ، أمـا الآخر فيـتم أداؤه بواسطة العقل والأيدى ، وكـذلك بالضرب على الأشـيـاء التى تصدر أصـواتا ، وهى فى الواقع نفس الموسيقى ؛ لأنه لايوجد سوى نوع واحد منها .

ومـرة أخرى كـان يتحـدث عن الموسيـقى التى نتنفـسهـا ، والأخرى التـى نعزفهـا . وقد فـهمت بعـد ذلك أنه كان يقـصد الموسيقى التى هى لهو ، وقال مرة أخرى :

- إن صوت أبى يتـجسد فى الرونئـات - إك وكذلك الصنج ذى الصوت الخفيض والذى يستخدم فى ضبط الإيقاع .

وفى يوم آخر أيضًا أوقف ولدا عن الضرب على الصنج قائلاً :

- إن صوت الجان هو الذى ينظم العالم .

وفى ذات يوم - بينما كان عائدًا من مـعبد فنون سوم - قال هذه الجملة التى لم أفهمها وقتئذ :

- إننى أتقـدم فى السن ، وأقتـرب من الموسيـقى ، وسوف أسمعها قريبًا .

كان يتغيب من وقت لآخر قبل الحـفلات المسرحية الكبرى ؛ لكى يمضى يومًا أو أسـبوعًا بجوار أحـد الكهنة الأجـلاء داخل المعبد .

- كيف يستطيع المرء أن يعلم الموسيقى إن لم يكن مطهرا ؟ كيف يمكن أن يعلم الكمال إن لم يكن يسعى بنفسه إلى الكمال ؟

ولكنه كان رغم ذلك هو نفس الرجل القصير القامة ذى الوجه الذى جعده الضحك والسنون ، والذى كان يمزح مع الفلاحين العائدين من حقول الأرز قائلاً : " هل تحبك النساء الجميلات ياليف شؤان ؟ " وعندما لم يعد يقوى على النهوض من فراشه المصنوع من الغاب الهندى المجدول ، بدأ يعلم الأولاد الموسيقى الجنائزية . كانت أيامه الأخيرة تمضى على إيقاع قرعة الحزن أو دقات الأجراس أثناء جنازات الموتى ، وكان يتولى ثلاثة من الصبية الطرق على مجموعة من الأصناج ، بينما أخذ صبى فى الخامسة عشرة يعزف على مزماره تلك الأنشودة الحزينة التى علمه إياها شاك سموك والتى تسمى موسيقى النفس ، وكان يتفوه بعبارات غريبة فيقول مثلا :

- عندما كنت فى بطن أمى كنت أسمع الموسيقى . إن موسيقى قلبى ونفسى هى التى كنت أسمعها عندما كنت فى بطن أمى .

وأثناء تلك اللحظات الأخيرة من حياة شاك سموك ، عندما كان الظلام يخيم على منزله ، وبينما وضع عند أسفل فراشه

السلة المليئة بالأرز غير المقشور ، وقصعة الأرز المطبوخ ، الشمعة ، ولفافات من أوراق البيتيل ، وهى بمثابة القرابين الجنائزية التى أعدتها النساء ، بينما التف حوله هذا الجمع الصغير من الناس الذين كانوا يزورونه كل يوم من الأيام العادية ، وكنت أراهم منذ عشر سنوات يدخلون ويخرجون ويتكلمون ويعزفون الموسيقى - إننى فى تلك اللحظة ، وحين سمعته يردد عباراته الأخيرة ، بدأت أتصور العالم الذى كان يعيش فيه شاك سموك الذى أصبح فى طريقه إلى حيث سوف يسمع الموسيقى على الجانب الآخر من جدار الموت . وفهمت لماذا كان الغناء وصوت الناى وصوت المزمار يمثلون صوت سيتا ، وصوت الغابة ، وصوت المياه ، وصوت كل ما ينساب ، وكل مايغذى ، وكل مايقبل ، صوت الكيان الذى نذوب فيه ، صوت كل مالا اسم له ، صوت كل ماهو مغاير للنفس ، أى صوت تلك الموسيقى التى نسمعها عندما نكون فى بطن أمهاتنا ، والتى نستمع إليها مرة ثانية عندما نرحل إلى الناحية الأخرى من جدار الموت . كما فهمت لماذا صوت الصنج هو الموسيقى التى يعزفها العملاق " ياك إك " ، أى الموسيقى التى نتعلمها من أبينا عندما نولد ، وهى أيضًا التى تضبط الإيقاع ، وهى كذلك الموسيقى الخاصة بالجان الذين ينظمون العالم .

- الموسيقى التى تطربنى هى التى علمنى إياها أبى عندما

ولدت ، وذلك عندما علمنى أن أقرع الرونئات - إك .

وعشية وفاة شاك سموك ، كان لايزال يعلم الأولاد العزف على الصنج الذى ينظم العالم . وكان لايزال يعنفهم بصوته الذى كاد ينطفئ قائلاً :

- يريد الجان أن تصل الموسيقى إلى درجة الكمال . وهم لايحمون العازفين الصغار الذين يحتقرون النظم التى وضعها الأجداد . لقد علمنى أبى الموسيقى كما كان يعزفها الأجداد ، وكان يقول لى يجب أن تكون جديراً بفن أجدادك وأن تتبع نظمهم لتعلمها للآخرين عندما يأتى دورك .

عندما مات شاك سموك ووضع بين أسنانه قطعة من العملة المعدنية ووضعت بعض أوراق الشجر على عينيه ، استمر الصبية الأربعة فى عزف الموسيقى التى علمهم إياها ، ولم يطرأ أى تغيير على عزفهم يوحى بأن شيئًا ماقد تبدل فى الوضع . فكان يسمع نفس الرنين الخفيف الصادر من المطارق الجلدية الصغيرة ، ودقة الصنج الكبير التى كانت من وقت لآخر تضبط الإيقاع ، ونفس الأغنية الحزينة التى تنساب دون ملل مثل ماء الينبوع ، استمر حدوث كل ذلك كما كان الحال بالأمس حين طلب العازف العجوز من تلاميذه إعادة أداء اللحن نغمة نغمة جملة جملة ؛ لكى يصل أداؤهم إلى الكمال ويصبح جديراً بفن

الأجداد الذين تعلموه من الجان . ولم يتوقف الأولاد عن العزف طوال النهار . كان يسمع عزفهم عند الاقتراب من منزل شاك سموك ، وكان يبدو وكأن عقود الزمن المرتبطة ببعضها عبر العصور كانت تتحرك مع الأنغام المتعاقبة التى لحنها جد شاك سموك ، ثم أبو شاك سموك ، ثم شاك سموك ، ثم الأولاد الذين علمهم شاك سموك ، وكان يبدو كأن الجميع يسيرون معًا متجهين بتؤدة إلى هذا الأبد الذى لم أكن سوى شاهد عليه وضعنى القدر فى هذا المكان . هل تفهم الآن لماذا كنت لا أطيق الموت الرهيب الذى قضى على شو براك فى الغابة ، وكذلك صرخته وخوفه وانقباض نفسه ؟ عندما يكون الموت جزءًا من نظام الكون ، فإنه لايكون الموت حقًا ، بل مجرد انتقال من حالة إلى حالة أخرى . وأنا كنت الشخص الذى أدخل الاضطراب فى الأوضاع ، وأنا الذى جعلت من الانتقال موتًا . حين كان شو براك يموت أمامى فى حالة هول وفزع ، وبينما كنت أنا أتصور بغرور أننى أجنى حكمة أبيه العجوز ، كنت أفرغه هو ، مستعينًا بالمنهج وبالعلوم التى كنت ألقنه إياها ، كنت أنتزع نظامه الداخلى ، وأسلمه عاريًا مفرغًا إلى الموت . . .

هذا كان كل ما أنجزته فى كمبوديا .

إننى لم أفهم بادئ ذى بدء الدرس الذى لقننى إياه دون أن يدرى شاك سموك ، حتى بعد وفاته . لقد احتفظت أيضًا

- كتذكار منه - بناى صغير يسمى خلوى ، مصنوع من الغاب الهندى وبه بعض الثقوب ، وحاولت مراراً أن أعزف عليه الموسيقى التى كان يبتدعها بإيحاء من روحه ، وقد انتقل إلى عالم الآخرة ليلتقى ثانية بتلك الموسيقى . كنت أود وأنا أعزفها أن تساعدنى على أن أفهم فهما أفضل الكلمات التى قالها لى ، والتى كنت أرددها وأنظمها ، فأكتشف أنها مازالت تتضمن بعض الأسرار الجديدة سوف تكشف لى عنها النقاب . كنت أعزف الأنغام الرتيبة وكأنها مذيلة بزخارف مطرزة بخيال عازفها . كان ينتابنى وأنا أعزفها شعور بالورع بل بالتواضع . ولكى أجيد العزف أكثر فأكثر ، كنت أطلب من الصبية أن يحضروا معهم آلاتهم الموسيقية ليجلسوا معى فى المساء على الشرفة . فكانوا يحضرون ويعتريهم الخجل فى البداية ، ثم يجلسون مبتسمين على الحصيرة ، فكنا نعزف معًا الألحان التى كان شاك سموك قد علمنا إياها ، وكنت أستطيع أن أتجنب الشعور بأننى مجرد عازف هاو وسط هؤلاء الصبية الذى كانوا عازفين مهرة . لا أعتقد أن الألحان التى كنت أعزفها تختلف كثيراً عن تلك التى كانوا يعزفونها هم : إلا أن شيئًا ما كان يجعل عزفى غير جيد . إنه لم يصبح جيداً إلا عندما كنت أعزف بمفردى ، وكان حماسى يجعلنى أعتقد أن ماكنت أحمله من مودة للعازف العجوز كان كافيًا ليقود أصابعى وفقًا للقواعد

التى وضعهـا الأجداد ، وأن روحى متوائمة مع نبضـات حياته . وبهذه الآصرة الحـميمة التى كـانت تربطنى به والتى لـم تكن على مستوى الآصـرة التى تربط هؤلاء الصبـية بمعلمهم ، ومـن قبله بألحان أبيـه وجده . فكنت أشعر بأنـنى موضع للسخرية ، كـما كنت أشعر بتعاسة بالغة إلى حد دفعنى إلى العدول عن الاشتراك فى هذه الحفـلات الموسيقـية . ومنذ ذلك الحين أصبـحت أعزف بمفردى على ناى شـاك سموك ، كمـا كنت أعزف على ناى نانج ســـوى ، وكـذلك على ناى إيدا باجـــوس باندجى . إن المرء لايسـتطيع أن يرتجل الألحان ، هل تفـهمنى ؟ هنا توجـد هوة . فالمرء لايسـتطيع أن يختلق لنفســه أجدادا ، إننا لا نأتى من أصل مـجهـول ، وحـتى الروابط العاطـفيـة لاتكفى ، إننا نضـيع فى الأوهام ، لكن تلك الأوهام عزيزة علينا ، إننى يـادكتور لـم أكن لأعدل قط عن ارتكاب تلك الحماقة التى اجتاحتنى وحملتنى على أن أحـاول الوصـول عن طـــريق هـــــذه الموسيـقى إلى كـافـة القلوب فى العالـم . ولكن الناى الذى كنت أمتلكه أنا - ولـم يكن ذلك أقل الأمـور إيلامـا - كـان نايا آخر مـصنوعـًا من خـشب الأبنوس ، مزينًا بحلقة من العاج ، كنت أعـزف عليه مقطوعات من موسيقى باخ [١] . لقد حصلت على هذا الناى من امرأة كنت أتحدث بلغـــتـها ، أى نعم ، ولو قـــال لى أحـــد حـينـــئذ ،

(١) باخ (جان سبستيان) ١٦٨٥ - ١٧٥٠ موسيقى ألمانى شهير بمؤلفاته وألحانه الكنسية .

:ما كنت أتعلم كيف أضع أصابعى على الثقوب وكيف أجعل
:نفتى شكلاً مستديرًا حول ثقب خشب الناى ، وكيف أنغم
صوت ، لو قيل لى وقتئذ إننى سوف أقضى بقية حياتى منهمكًا
فاقدا أنفاسى وأنا أعزف على آلات مصنوعة من البوص النابت
لى ضفاف النيل ، أو على ضفاف نهر الجنج ، أو من الغاب
وارد من الكردامـوم ، وأنا أحاول أن أعزف على ناى يقتنيه
خرون . . . كنت وقتئذ طالبًا فى فن العمارة ، وكنت موهوبًا
لى حد ما . (ولو قال لى أحد إننى لن أبنى سوى أطلال . . .
كان العالم يبدو لى فى تلك الأيام وكأنه بناء ضخم يجب
شييده : فينبغى حل بعض المشاكل الخاصة بتشييد المبنى بحيث
تواءم وطبيعة الأرض ، وبموضوع أسعار التكلفة ، وبمتانة مواد
لبناء . لم أكن أعرف بعد ، أو كنت قد نسيت مؤقتًا ، إن العالم
:الحياة ما هما سوى سلسلة من المعضلات التى يجب حلها ،
حتى الأعمال الفنية كانت تبدو لى كأنها حلول موفقة لبعض
المعضلات ، كنت أحب الكنائس الرومانية لأنها كانت تتميز
بالاقتصاد فى البناء وبالتنسيق بين الوسائل المستعملة فى التنفيذ
للوصول إلى هدف معين ، كنت أحبها حقًا ، أتوقف لزيارتها
خلال سفرياتى ، وقد تزعزعت رؤية العالم بالنسبة لى بسبب
واحدة من تلك الكنائس الرومانية كانت هناك ، فى المبنى الملحق
بالعزبة التى كان يمتلكها والدها ، كنيسة صغيرة من القرن

الثانى عشر ، وكان الدليل السياحى لفت انتباهى إلى وجودها ، وكانت هذه الكنيسة آخر ما تبقى من دير كان مقامًا فى ضاحية كلونى ، وقد استخدمت فى الزمن الغابر كنقطة توقف على طريق الحجاج المتجهين إلى مزار القديس جان دى كومبستيل ، وأصبحت منذ قرن أو قرنين جرنا لحفظ الحبوب . عندما قرعت جرس باب المنزل ، وعندما أتت لتفتح الباب ، وابتسمت لى ، لم أكن أعرف أننى كنت فى منتصف حياتى بالضبط ، وأننى سوف أصبح فى الغد على السفح الآخر ، على هذا السفح اللا نهائى الذى فى آخره . . . أنت ، وهذا الوضع الذى أنا فيه الآن . وكنت جاهلا بتلك الأمور أيضًا فى ذلك المساء ، عندما قررت أن أبيت فى فندق القرية قاطعًا رحلتى دون أى سبب - كنت فى الخامسة والعشرين آنذاك - سوى أن أرى مرة أخرى فى الغد فتاة جميلة أعجبتنى ، متعللاً باهتمامى بالكنيسة الرومانية حيث كان والدها يضع أدواته الزراعية ومحاريثه . حقًا كانت جميلة . ياله من جمال ينبثق من تلك النوافذ الثلاث ، إننى أفهم الآن وجه التشابه بينها ، عندما كان المرء يجتاز الباب ويتقدم نحو الأعمدة الأربعة الجسيمة والتى يتوارى نصفها خلف حزم التبن والعرائش المرفوعة لعربات النقل القديمة - كان يبزغ له الضوء بزوغًا مبهرا من النوافذ الثلاث الصغيرة الخالية من الزجاج ، وكان ينحدر من خلال إحداها . لقد عدت مرارًا إلى هذا المكان فى هذا الوقت ،

عندما تنحـرف منه أشعة الشمس تتـخللها الأتربة وزغب القش ، منزلقة على الأحجار ، لتبرز شكلهـا وتحتضنها وتقبلها ، ثم تشع من هنالك لتـغطى كل هذا المكـان المتواضع بـعذوبتـه الرائعـة . وكانت تلك الصـلابة الخشنة فى الأحجـار ممتزجةً بعـذوبة الضوء هى التى تجعل النوافذ الثلاث متشابـهة ، وفيما بعد عندما جلسنا مع والدها فى الصالون المفروش بالأثاث الداكن ، وأخذنا نتحدث عن الأحجـار الرومانيـة والأرض والأشجار والخـيول ، بدت لى هذه الفتاة فى قوتها الريفية الممتزجة برقة الأنوثة ، وأنا أدرك الآن أنها جعلت شيـئًا مايتصاعد من الأعمـاق ويطفو على وجدانى . إننى لم أبق فى هذا الفندق حتى اليوم التالى وحسب ، بل امتدت إقامـتى به إلى ثلاثة بل أربعـــة أيام ، وكانت تأتينى كل صـباح قطع من الخبز الريفى ذى الطعم المـائل للحـــموضة وعليها طبقة من العسل ، وبعد يومين عندما صاحبتها إلى مستودع الفاكهة فى وسط ذلك الجو الذى كانت تكتنفه ظلال خفيـفة ويفوح فيه مزيج من أنواع الأريج الكثيف والغنى والمنعش والناتج من أجيال عديدة ومتعـاقبة من محاصـيل التفاح والكمـــثرى المـودعة حولنا على حصائر خشبيـة ، وعـندما قلت لها وأنا أقدم لها السلة التى كنت أحملها : " أعتقد أننى قد وقعت فى شباك الغرام " ، أجابتنى : " وأنا أيضـا " ، وبدأنا نتبـادل حوار العـشاق التـقليـدى الذى يقتصر تـقريبًا عـــلى عبـارة واحـــدة : وأنـــا أيـــضًـــا ،

اتضح لى أننى لم أتزوج هذه المرأة لجمالها فقط بل لأننى وجدت فيها جذور وجدانى المفـقودة . هذه يادكتور قصة هذا الناى الذى كانت تعزف عليه . وكانت وجدته فى العلية حيث كان قد وضعه شخص آخر منذ زمن طويل جداً ، ربما لأنه قد توقف عن العزف عليه ، أو ربما لأنه كـان قد فارق الحيـاة ، إذ إنه حتى والدها لم يكن يتذكـر وجود أى من أفـراد العائلة كان يعـزف على الناى ، وكان اللحن الذى ينبعث من هذا الناى القديم عندما كانت تعزف عليـه هو فى الواقع صوت هذه الدار وصـوتها هى ، مـتوافـقين ومـتناغمين مع أحـدهـما الآخـر ، ومع هذه المنقولات القـديمة اللامعة ، ومع الستائر ، ومع رائحـة نار التدفئة وأريج الفواكه ، ومع هذه الرائحة المنبـعثة من الزمن ومن كل الأشيـاء التى كانت تحيط بها ، وكان ينبـغى ألا أجعـلهـا تتركـها أبداً . أعتقد أن رغبـتى فى أن أتعلم العـزف أنا أيـضًا طرأت على ذهنى عـندما كنت أراها وأرى شـفـتيـهـا الجمـيلتين مـستـديرتين حـول الناى ومـشدودتين قليـلاً فى شبـه ابتسـامة لتـسمح بمـرور نفـسهـا ومنتفختين حول خشب الناى ، كنت أشعر أن التواؤم فى التنفس هو أعمق المناغاة بين النفـوس . وعندئذ كان كـل مايـستـهدفه تفكيرى هو الاسـتمرار فى هذا التواؤم وفى الانسـجـام المتبادل بيننا ، وإيجـاد سبيل لتـشكيل طريقة تنـفسى لتنسجم مـع طريقة تنفـسهـا ، وأن نجتـاز بواسطة الموسيـقى حـدود تـواؤم

نفسَينْا ، كما كنا قد تنغمنا بذلك عندما التقينا فى أول مساء قضيناه بمستودع الفاكهة ، وكما تنغمنا بتجدده طوال الليالى التالية .

لقد بحثنا طويلاً عن الناى التوأم لنايها ، ووجدناه ذات يوم لدى بائع عاديات فى ليموج خلال إحدى سفرياتنا . وعلمنا عندئذ أن النـاى الذى كان فى العلية كان هو أيضًا من صناعة قديمة ، وقد ظل وسط أشياء مهملة منسيا طيلة خمسة أو ستة أجيال . وقد تعلمت معها أن أجسم الصوت وأنغمه وأطوعه وأن أداعبه بحنان مع صوت آخر مجاور ، كنت أنزلق نحوه بنعومة بالغة ، كنا نعزف معًا مقطوعات من موسيقى باخ على هذين النايين المصنوعين فى عصره من الخشب والعاج ، وكان ينبعث منهما صوت نقى ورخيم ، وقد أصبحنا بارعين فى تطريز تلك التحف من الألحان ، وفى انحناء أنغام الأغنية وتمويجها واستدارتها ، ونحن نحذو فى ذلك حذو رسامى ذلك العهد الذين كانوا يرسمون نهود النساء اللاتى كانوا يعشقون على شكل مستدير ، وكنت أجد انسجامه الحنون فى نهد وجسم وابتسامة المرأة التى جعلنى القدر أحبها فى ذلك المساء الأول ، حيث التقينا بين الفواكه الناضجة المتراكمة التى جادت بها الأرض ، وهى ثمرة تدبيرها الاقتصادى لدارها القديمة ، وفيما بعد عندما ألقت بى الكارثة التى لم أستطع تجنبها ، ألقت بى وحيدًا فى

الطرف الآخر من العـالم ، تعلمت أنه يجب على أن أتفهم ، بل بالأحرى أن أشـعر بنفسى كمـا كنت أفعل أثناء الأيام السعـيدة ، وكان ينبـغى أن أستطيع التـوغل فى قلوب كائنـات أخرى وأفكار أخرى وعـوالم أخرى ، ومن ثم بدأت أمـزق نفسى فى مـحاولة لأتطابق بواسطة فمى وأصـابعى وتنفسى والقوة الدافعـة والمحركة لحياتى ، مع كل هذه الأنظمـة المتضاربة التى استخدمتـها البشرية لكى تعبر عن كل مالاتفهمه . لقد تلقيت هدايا من الغاب الهندى والبوص ، كـان يقدمـها لى رجـال ونساء يطرح وجـودهم على العالم تسـاؤلات مختلفـة ، وكنت أشعـر ناحيتـهم جميـعًا بنوع خاص من المحـبة . كل ناى من هذه النـايات كان يجبـرنى على تغيير حالتى الوجدانية ، فكنت أنتقل من الألحان الخماسية الخاصة بجزيـرة جاوا إلى الأنغام الـعربية ، ثم أعـود إلى سلم النغـمات الجياشـة للناى الباروكى الذى كنت أمتلكه ، وبعـد عزف المواويل السودانية الحزينة التى تجعل القلوب تنقـبض عند سماعها ، كنت أتحول إلى نسيج النغم الذى كان يطرزه أحمـد ويحييه قادمًا به من أقدم العـصور المصـرية . كنت أتنقل من أغنيـة إلى أخرى ، هل يمكنك أن تتصـور التمزق الـذى يثيره التـحول من ساحـر شعب الخمـير إلى الـراقص الغربى ؟ إن وجـود أحدهـمـا يتنافى مع وجود الآخـر .لقد ولدا فى عالمين مـتباعـدين يـجهل أحـدهما وجود الآخـر ، كمـا كانت تختلف الأسئـلـة المطـروحـة

عليـهمـا ، وحيث كـانت الألغاز مـتنافرة . أمـا أنا فكنت أبذل قصارى جهدى محاولا الجمع بينهما والتجاوب مع أحدهما ثم مع الآخر ، على الرغم من أنهما آتيـان من مجاهل التاريخ وظلمات النســيـان . ولكن ذلك لـيس بإمكان المرء - وأكــررها ، ليس بإمكـــانه يادكتور . فهو يحاول مجتهدًا . إنه يريد أن يملأ نفسه بـــكيان آخر ولكنه يتفرغ من كل مشاعر وجدانه .

وعندما كنت فى جـزيرة بالى الإندونيسـية نزلت ضيـفا على صديق ألمانى موسيقار ، كان يتنزه فى الجزيرة حاملاً مجموعة من الآلات يقول عنهـا - وهو يتصنع السخرية - إنهـا بضاعة الآلات التى يستـخدمها عـادة الباحث الهاوى للمـوسيــقات القومـية : كانت تتكون من جهاز تسجيـل ، وكمية من الورق الخاص لكتابة الموسيـقى ، وبطاقات تسجيل ، وشـوكة رنانة ، وجهاز لقـياس الأصوات كان يستخدمه لقياس وتحديد السلالم الموسيقية والنغمات التى تخـتص بكل قرية يمر بهـا . كنت أحب أن أراه عندمـا كان ينحنى على الآلات الموسيقيـة المصنوعة من المعدن والغاب ، وهو جالس الـقرفصـاء على طريقـة أهل الجزيرة بـــجـوار العـــازف الذى استـعار منه مطرقـة العزف ، مـستخـــدمـا إياها فى طرق مناطق اللـمس فى الآلة بكل رقـة ودقـــة ، مـــثل تـــاجـر العاديات الذى يتنـاول إناء نفيسًـا من عصر المنج الصـينى ، كان

ينصت وقد أمال رأسه ميلا خفيفًا ، بينما عيناه الزرقاوان يبدوان تائهتين وهو يحاول أن يقتنص ثروة من الموسيقى ، لم يكن يصلنى منها وأنا بجواره إلا القليل من الرذاذ . عندما كنت أتأمل صديقى الألمانى رولف وهو يصغى إلى موسيقى جزيرة بالى كنت أدرك أن العالم ليس بفقير إلا بالنسبة للذين لاينتظرون منه شيئًا ، إن الأشياء لاتكون نفيسة إلا بالقدر الذى ينبرى الذهن لكى يكتشف قيمتها الدفينة . إننى عندما كنت أطرق الشرائح البرونزية لآلة الجوانجسية أو آلة الشالنج ، لم يكن يصلنى أكثر من قطرة واحدة من النغم البللورى الذى كنت معجبًا به ، بينما كان رولف يجد فيه نهرًا فياضًا من الذهب الموسيقى ، لن تتاح لى أبدا الفرصة لألمحه ، كان يعرف كل الفرق الموسيقية وكذلك كل عازف من عازفى القرية ، كان قد أعد إحصائية لجميع المجموعات الموسيقية ، وكانت تشمل آلات النقر والإيقاع من أجراس قرصية وصنجات . كان يؤتى إليه من كل فج عميق . كان العازفون يجيئون فجأة أو بعد يومين أو ثلاثة من إعلان قدومهم بواسطة قروى يحملونه الرسالة ، كانوا يشاهدون سائرين فى صف طويل حاملين أدواتهم الموسيقية الثقيلة معلقة على عصا محمولة على أكتافهم ، وقد مشوا على أقدامهم ساعات طويلة على الدروب الوعرة ليتمتعوا بمقابلة رولف ، كانوا يجلسون على درجات السلم تحت الكنبة المكسية بالقش ،

وهم يمضغون نبات البيتيل ويدخنون السجائر المعطرة بالقرنفل ، يتكلمون قليلاً كما لو كانوا ابتدأوا فترة انتظار هذه الموسيقى التى كان يبدؤها واحد منهم ، أى واحد ، فيعزف - بشىء من التردد - سلسلة من الأنغام كان يعزفها لنفسه ، كما لو كان ينبغى أن يكون هذا الانتقال غير المحسوس والتدريجى بين ضوضاء الحياة العادية والإيقاع الموسيقى . لقد أقمت طيلة أشهر عديدة فى بيته الصغير المصنوع من الصلصال والغاب والجريد المجدول . وكانت الموسيقى تسمع دائمًا فى هذه الدار . كان الأطفال يأتون صباحًا ويجلسون فى ركن من الفناء بين الدجاج ، يحمل كل واحد منهم مزماره الصغير المصنوع من الغاب ، وكانوا يعزفون هم أيضا لأنفسهم دون أن يتكلموا . وكانت هذه الأنغام البسيطة المتتالية برقة تصاحب جميع أفكارنا وأعمالنا الصباحية وكأنها حامل رقيق يتكئ عليه الصمت . هكذا كانت دار رولف . فعلى الرغم من أنها كانت مليئة بالعديد من الأشياء إلا أنها كانت تبدو مجردة تماما وبعيدة عن الفخفخة التى تتسم بها المنازل الريفية للأوربيين الذين يتصنعون التجرد . لم يكن فى هذه الدار شىء من الأشياء التى نعتبرها ضرورية ، فلم يكن هناك حتى منضدة واحدة : فكنا نأكل ونكتب على ركبنا . كنا نجلس كيفما اتفق على حصائر أو على أحد الصناديق . لم تكن هناك مقاعد أو دواليب أو صوان للسفرة بل مجرد أشياء مبعثرة من أدوات

موسيقية ، ونايات ، وربابات صغيرة معلقة على الحائط المصنوع من الجريد ، وتماثيل صغيرة ، وأوان من الخزف يتراوح لونها بين الأزرق والرمادى ، والعديد من الأشياء المصنوعة من ثمرات جوز الهند - وكل ذلك بلون أصفر كمونى أو رمادى أو بلون القش الداكن أو الحجر الرمادى أو الخشب الغامق أو الجلد أو البرونز العتيق أو بلون الريش القديم للديوك الحمر أو بلون الجريد المجدول . وفى الظل الخفيف الذى تبزغ منه هذه الألوان الصامتة ، كانت تندثر الأصوات المماثلة ، وهى موسيقى الأطفال ، وأصوات الزيزان الصغار والتى يطغى عليها من حين لآخر صياح الديكة فى أقفاصها المصنوعة من البوص . وعند المساء فقط ، عندما كانت الظلال تزيد من كثافة هذا العالم الرمادى والأشقر والأضهب ، كانت تصل إلينا الموسيقى ذات الرنين الذهبى حينما كان الرجال يطرقون آلاتهم الموسيقية البرونزية فى ساحة المعبد الشمالى . هناك - يادكتور - تعلمت ماتيسر لى من مبادئ الموسيقى وعلاقتها بالسكون ، وأدركت ما هى الظلال الداخلية . إن الموسيقى لاتعبر عن الشعور إلا عندما يتسنى للأشياء أن تفقد أشكالها الخارجية وخطوطها الواضحة ، إن العين تقدر الفضاء وتحدد المسافات وتميز الأشياء عن بعضها . قف عندك أيها الشيء ، إنك لست أنا ! إن الرؤية أقامت فاصلاً بيننا وبين ماتدركه . أما الموسيقى فهى تتغلغل فى النفس وتقلل من

استقلالية الأشياء ومن استقلاليتى أنا وتجعل الأشياء تتداخل فى وجدانى وتملأ السكون الذى يكتنفنى . إن أجمل موسيقى استمعت إليها هى التى كان يعزفها العجوز جدى أجونج نجوره الذى كان يطيل زياراته فى المساء . كان شبه ضرير ، يأتى دائماً بصحبة أحد أحفاده حين كان وضوح الأشياء يختفى تدريجيًا رغم الضوء المنبعث من مصباح الكيروسين . كان يجلس على أعلى درجة فى سلم المدخل ، وكان رولف فى الأمسيات التى يجىء فيها هذا العجوز - ينزل ليجلس على درجة أو درجتين أسفل الدرجة التى كان يجلس عليها العجوز . كنا نتحدث بعض الوقت ، وكانت الجمل تتتابع من بعيد لبعيد ، تفصلها فترات من التفكير والتأمل كما لو كان حديثنا يرمى إلى إعلان حقائق مهمة ونهائية ، ولكننا لم نكن نتحدث سوى عن أشياء عادية ويومية : حول الحياة ، والناس ، والبهائم ، والأرز . كان اهتمامنا ينحصر فى تمضية الوقت فى صمت تام ، بينما كنا ننسجم شيئًا فشيئًا مع كل مايحيط بنا : المساء ، والليل ، والمنزل ، والمصباح ، والصمت . كنا نقترب ببطء شديد من اللحظة التى كان الأمير العجوز يطلب - بمجرد إشارة من الفتى الذى يصطحبه - أن يضع على ركبتيه الأوراق الطويلة لشجر اللاتانية التى كتبت عليها النصوص القديمة ، والتى جاء

ليترجمها لرولف . كـان الشاب يقرأ أولا باللغة الجاوية القديمة ، وبصوت رتيب ومتـردد ، وكان يتعثر أحيـانا أمام بعض الكلمات المجهـولة ، ثم كان يتـولى أجونج ترجـمة الآية بعـد الآية بلحن ينتمى إلى الترانيم الدينيـة . وكنت أدرك خلال هذه الساعات من الليل كيف تتحول الكلمة إلى موسيقى : فكانت الكلمات والجمل وأبيات الأشـعار تردد بلا نهاية ، بيـنما كانت تعظمـها موسـيقى بدائية تتميز بنقاوة مطلقـة ، حتى أنه لم يكن باستطاعتى أن أفهم كلمة واحدة منها . كانت الذبذبات الصوتية تصل إلىّ وحدها فى هذا الليل الذى كانت تكاد تمزقـه الأضواء المنبعثـة من المصباح ، والتى كانت تسـتوعبهـا الأشباح الثلاثة المائلة أحـدها على الآخر مصغية إليها باهتمام .

فى يوم من الأيـام - يادكـتـــور - تحـدثـت مع رولف عن رامبرانت ، [1] على الرغم من أن حديثنا عـادة لم يكن يتجـــاوز جزيرة بالى . إن العالم الذى يعيش فيه رولف كان قد انحصر فى نطاق حدود الجـزيرة . كان يبـدو وكأنه لم يعـد يعرف أى شىء عـداها ، وعندما كـان أحـدنا يذكر أمـامه مـكانا ما من العـالم الخارجى كـانت نظراته تبدو زائغة كنظرات شـخص يريد أن يبقى بعيداً عن الحديث ويستمـر فى حواره الداخلى مع نفسه بينما أنت

(١) رامبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) رسام هولندى - يعتبر واحدا من أساتذة الفن الكبار فى العالم كله .

تتحدث إليه . وفى ذلك المساء أخذت أتحدث عن رامبرانت . ربما كـان ذلك بسبب الألوان : فـأتانى فـجأة صـوت آلة الجـاملنس الموسيقية وكأنها ذهب ينصهـر من عقد يتبرج به العالم الذى يبدو منحـوتا بواسطة درجـات الظلال . وفجـأة قـال رولف بنوع من الجفـاء وبدون مقـدمات وبلا أى عـلاقة بالحديث وبشـكل قاطع ووحشى :

- طبعا باخ . هل تعتـقد أننى لا أعرف ذلك وأننى لا أؤمن به مثلك ؟

لم أكن لأفـهم سوى أننـى كنت قد لمست شيـئًا فى غـاية الحساسية ولايمكن التنبؤ به . وقد تساءلت لأول مرة حتى قبل أن ينطق رولف بجملة ثانية : مـاذا كان يفعل رولف فى جزيرة بالى ؟ لماذا كان يقيم فى جزيرة بالى ؟

لقد بادر بالرد :

- بالتأكـيد إن ذلك هروب ، بالتأكيـد إنه تخل ، عن موقع إذا أردت .

وأضاف وكأنه يهدف إلى إثارة الاستفزاز :

- ولم لا ؟

كان الاستـفزاز موجهًا إلىّ . فمـاذا كنت أفعل أنا فى جزيرة بالى ؟ ولماذا أمضيت خمسة عشر عامًا فى كمبودياً ؟

– كان أصدقائى الألمان يكتبون إلىَّ من البداية . فهم أيضًا من هواة الموسيقى . كنت أصف لهم الأصناج المستخدمة فى جزيرة بالى . وكانوا يردون عليه بالحديث عن باخ وموتسارت [1] . وكنت أفهم من ذلك أن كلامهم كان يتضمن شيئاً من التوبيخ . لاشك فى أن باخ وموتارت هما من أشهر مؤلفى الموسيقى ، طبعًا يا أغبياء ، هل توجد موسيقى أخرى غير موسيقاهما ؟ وماذا يعتقدون أننى أعمل فى جزيرة بالى منذ عشر سنوات ؟

استمر رولف فى حديثه بنوع من المواربة .

– وهذه الصغيرة نى سووارتى بوجهها الأملس الجميل إلى حد الكمال ، والذى يتميز بالمسالمة والبراءة من . . .

هل كان يعنى : بريئًا من عذاب الضمير ؟ لقد قال : بريئًا من الجذام ، بريئًا من جذام الضمير ؟ هل كان يريد أن يقول من الضمير المريض بالجذام ؟ أو ربما كان يقصد الضمير فقط مع تشبيهه بالجذام ؟

– ولماذا تعتقد أنى أحب وجه نى سووارتى ، إننى أحب وجهها لأننى أحب وجه هندريكيه شتوفلز [2] المتألم كما أحب التعبير عن الآلام فى لوحات رامبرانت .

(١) موتسارت (١٧٥٦ – ١٧٦١) مؤلف موسيقى نمساوى . يعتبر أحد أعظم عباقرة الموسيقى فى كل العصور .
(٢) هندريكيه شتوفلز : صديقة رامبرانت التى رسم وجهها المتجعد مراراً .

هل تحب رامبرانت يادكتور ؟ هل شاهدت صور هندريكيه شتوفلز التى رسمها رمبرانت ؟ إن نى سووارتى كان لها وجه يدعو إلى الحب والعبادة . ولكن المرء لايستطيع ، أتفهم ذلك يادكتور ؟ حقًا إن المرء لايستطيع . إنه يجتهد ليتجاهل ويضم أذنيه . ولكن المرء لايستطيع . لقد فعلت ذلك أيضًا ، وسرت فى هذا الطريق إلى أبعد ما استطعت ، ولكن دون جدوى . وذات مساء عندما كنت فى كمبوديا - وكانت كمبوديا فى تلك الأيام تشبه إلى حد ما جزيرة بالى بما كانت تتمتع به من جو لطيف . . . وكان منزلى هناك دافئًا ، يتميز بالصفاء النقى على عكس منزل رولف الذى كان مليئًا بالتساؤلات ومكتظًا بالألغاز ، (وحيث كان الناس هناك يعيشون فى منازل مرفوعة فوق المياه على أعمدة ، وكان يصل ارتفاع تلك المنازل إلى مستوى قمم الاشجار) وكنا نسمع أصوات النساء وهن يسرن بمحاذاة نهر سيام ريب يضحكن ويحادثن بعض الأطفال بلغة الكمبوديين الغنائية الجشاء ، حينئذ كانت الكلمات والروائح والزمن والليل وصوت دواليب السواقى التى كانت تدور ببطء على ضفة النهر وصياح التاكخية ، كل ذلك كان يتضافر بانسجام ليشعرنا فى كل لحظة بنوع من الكمال والإحساس بعذوبة مطلقة ، هذه هى السعادة ، إننى كنت أشعر بها ، وكان كل ذلك يبدو وكأنه إيقاع نَفَسى متناغم مع حفيف هذا الليل الهادئ هدوءا

تامًا ، كنت أتساءل ما السبب وما الدافع وراء ذلك ؟ لقد نهض أحدنا فى الظلام وذهب إلى آخر الحجرة ووضع على الفونوغراف إحدى الأسطوانات التى أملكها .إن تلك الأسطوانة موجودة هنا يادكتور ، وسوف تسمعها ، إنها إحدى المقطوعات الموسيقية الغنائية الخفيفة ، لحنها هاينرخ شوتس ، وليست من ألحان باخ أو موتسارت بل هى شىء أكثر بدائية ، مقطوعة موسيقية قديمة من الموسيقى اللوثرية (من عهد الإصلاح) والألمانية ، لاتخلو من السذاجة ومن بعض الخشونة ، تتميز بأنها موزعة إلى ستة أو ثمانية أصوات ولكنها كثيفة ومركزة كالنواة ، جعلتنى أشعر أنها محت وانتزعت وجدانى . إن كل الظروف التى كانت تحيط بى ، كالسعادة المنبثقة من كمال الطبيعة وهذا الليل الذى كان يتنفس معى بينما يحوطنى هذا البلد الذى أحببته واعتبرته وطنا لى ، وأردت أن يكون بلدى ، ووقع عليه اختيارى لأنى اعتبرته رسالة علىّ أن أؤديها ، وكنت أحبه حبًا جعل منه إطارًا لقدرى ، وحقق كل أمنياتى وأغرقنى فى واحة من السلام ،بينما كنت أنعم بالجو الساحر المنبعث من هذه الليلة الدافئة والعطرة . ثلاثة أوزان من هذه الموسيقى القديمة من الألحان اللوثرية . . إننى لا أنتمى إلى المذهب اللوثرى يادكتور ، ولايوجد شىء يربطنى بألمانيا اللوثرية كما كانت فى القرن السابع عشر . إننى لا أتحدث الألمانية : وفجأة وحدث كل ذلك بمثابة

جذور لوجداني . أنا يارب ، أنا الإنسان المسكين [١] . . . إنني ولدت هناك .

إنني في هذا المساء بالذات ، وفي سيم ريب ، وبعد مرور عدة سنوات أدركت ماذا كان يقصد رولف بقوله : إنني مازلت أرى كرؤيا الخيال وجه ني سووارتي الصغير المطلق الكمال وقد زججت حواجبها بخطوط في غاية الدقة وبدا وجهها البيضاوي الشكل وكأنه يفيض حنانًا ، وهذه الجبهة . . وجمال عينيها الساحر . . . إن الكلمات لاتجدي في التعبير عن إعجابي . . . لايوجد أي أثر لذلك الآن . . . رأيت ني سووارتي ذات مساء يادكتور في الفناء الخلفي لمنزل رولف ، وفي هذه اللحظة العابرة من الزمن في مجال خط الاستواء ، عندما تغرب الشمس فجأة مخلفة خطوطًا زرقاء تنسجها مع ظلال النخيل ، وتضفي لمسة من الحمرة على الأسطح المغطاة بالقش وعلى أعالي الحوائط المكسوة بالأعشاب والفطريات . وكانت ترتدي ثوبها الأسمر والأصهب ، وقد جدلت شعرها في ضفائر مشدودة إلى الخلف ، وتركت كتفيها ونهديها عاريين . كما كان معتادا وقتئذ في جزيرة بالي . كنت أراها وقد بزغ طيفها أمام ضوء الأصيل بحيث بدا رسم جانب وجهها وصدرها وذراعيها وقد أحاطت بها خطوط من الضوء . كانت تنقي الأرز الذي سيطبخ في اليوم

(١) هذه العبارة وردت في النص الأصلي بالألمانية .

التالى . وكانت تلقى به قبضة تلو القبضة فى الهواء لكى تقوم الريح بعزل القشور والأتربة بعيداً . وكانت بعملها هذا تحيط نفسها - فى أشعة الشمس الغاربة عند الأصيل - بذرات ذهبية حمراء . إننى أود أن تتخيل معى - يادكتور - كيف كانت هذه الهالة من الذرات التى تحيط بها تلمع ثم تنطفىء ، كانت تمثل فى هذه اللحظة الاحتفال المقدس بانتصار الجمال . . . إن نى سووارتى كانت هى الجمال . من جسمها النحيل وكتفيها ووجهها وجبهتها كان ينبعث الجمال ، والجمال فقط . . . كانت جبهتها ملساء تماماً ووجهها أملس أيضًا ، وهذا الكمال لم تكن تشوبه شائبة حتى عندما كانت تضحك . لم تكن تبدو على وجهها أية علامة ، أى تجعد ، أى شىء ليكشف سر احتفاظها بجمالها . هل تتخيل ذلك يادكتور ؟ كان جمالها باهراً ومجرداً تماماً من أى سر من الأسرار ، بينما كانت فى هذا الوضع ، كما كان باهراً عندما كانت ترتدى الأثواب الحريرية المذهبة والمزركشة التى تقولب جسمها وهى متوجة الرأس وقسمات وجهها لاتتحرك وكأنها ترتدى قناعًا ، بينما كانت ترقص رقصتى البندت والليلونج كانت تبدو حركات رقصتها كأنها هبة للمشاهدين بينما كانت تتمايل بنعومة فى رقصتها ، وكانت يدها اليمنى وأصابعها ترسم أشكالاً زخرفية عربية فى غاية الجمال ، أصبحت مروحتها الشىء الوحيد فيها الذى يرتعش وينبض

ويمثل بالنسبة لنا قمة العطاء . وكانت نى سووارتى تـتميز بالشفافية ، فلم يكن هناك أى لغـز فى حاجـة إلى حل ، وبكل بساطة كان على المرء أن يكتفى بمشاهدتها للإعجـاب بها . وكان رولف يحبها . وفى بعض الأمسـيات عندما لايأتى أحد من الجـيران لزيارتنا وفى غياب زميلات نى سووارتى الصـغيرات وسائر الأطفال كنا نجلس ثلاثتنا والعجـوز الذى كان يحضر لإلقاء قـصائده ، كنت ألاحظ كيف كـــان رولـــف يتـــأمل نى ســووارتى بصمت وإعجاب . كان رولـف يدخن لفائف محشـوة بالقرنفل على طريقـة سكان جزيـرة بالى ، وكان أريجـها يمتـزج بهذا الدفء المنبـعث من كل شىء يحـيـط بنا . كـانت نى ســووارتى تجلس القـرفـصاء وقـد لامست ركبتـاها الحصيرة . وبجوار مصباح البـترول الوحيد الذى كانت تصطدم به الفراشات مـحدثة طرقات بلا صدى ، كانت نى تنسج على نول صـغيـر جداً مصنـوع من الغاب وموضـوع على الأرض ، وهى تدفع المكوك بحـــركة رشـيقـة تؤديها بذراعها ورسغهـا ، وقد مال عنقهـا بـــدلال وارتســـمت على شفتـيها نصف ابتـسـامة تبـدو غـير مـبــررة . وكـان رولف يتـأمل نى سووارتى بحب عـميق جعلنى أتجه أنا أيضـًا فى صمت إلى تأمل آخر غيـر منصب عليه أو عليهـا ، بـل موجه إلى شعـور مبهج بشىء ما يمر بينـنا فى الهواء . كيف كـــان يمكـــننى حينذاك أن أفهم مـاسوف يقـوله لى رولف بعد بضــعـة أيـــام : " لمـــاذا تظن أننى أحب وجـه نى ســووارتى إن لم يكن ذلـــــك لأننى

أحب فقط وأكثر من كل شيء وبصفة استثنائية وجه هندريكيه شتوفلز المتألم والآلام التى كان يعبر عنها رامبرانت ؟ إننى لم أفهم معنى هذه العبارات إلا فى أنكور ؛ لأنه فى كمبوديا كانت تتعارض أفكارى مع نفسى . ومن الغريب أن أدرك هذا عن طريق الموسيقى ، وكان رولف قد حاول أن يفهمنى إياه بواسطة الرسم . . . كما لو كان الواقع أقل واقعية وكثافة من الفن . . . هل تفهم يادكتور جريرة الهروب التى اقترفها رولف ، وجريرة استسلامه ؟ إن نى سووارتى بسماتها الهادئة الحنون كانت تمثل التناقض الواقعى بالمقارنة بوجه هندريكيه شتوفلز الذى يتميز بعينين مستديرتين وحزينتين ، وهذا الوجه المجرد من الجمال الذى رسمه رامبرانت وأعاد رسمه عشرين مرة لشخصيات مختلفة تارة فى دور يتشبع أو يهوديت [١] وتارة فى دور المتزوجة والعاهرة ، فجعل لأصغر تجعيدة رسمها على هذا الوجه أثراً لايُمحَى ، كما جعل من كل ظل وكل ندبة تظهر فى الملامح علامة لسر من الأسرار . لم يحاول رامبرانت بقلق بالغ مجرد الكشف عن هذا السر وحسب بل دأب ببساطة على إثبات وجوده مسجلاً ذلك بعنف فى لوحاته باستعمال مختلف درجات اللونين الأصفر والأحمر . من كانت تلك المرأة ؟ إننا نجهل كل

(١) يتشبع : امرأة تزوجها داود بعد أن أهلك زوجها الأول . وأنجبت سليمان .
يهوديت : بطلة من بطلات التوراة .

شىء عنها ، ربما كانت غبية وتافهة ، ولكن رامبرانت عندما طرح هذا التساؤل الأليم على ملامح وجهها ، قد أجبرنا على أن نشير إليها كما يلى : تلك المرأة التى ارتسمت على ملامح وجهها لن أقول ترجمة حياتها ، بل عندما نلاحظ هذه التجعيدة هنا عند ملتقى الشفتين وهنا على أرنبة الأنف ، ندرك أن ذلك دليل على أن حياتها تأثرت ببعض المشاعر والأحداث فى الماضى ، وقد تكون ناتجة عن الحماس أو العشق ، أو الشقاء ، أو الألم ، أو السعادة ، أو اللذة ، أو الحب ، أو خيبة الأمل ، أو الحزن ، أو الشهوة ، ولن يتسم أبداً أى وجه آخر بنفس الملامح ؛ لأنه لن يوجد أبداً أى وجه آخر مطابق لهذا الوجه . أما أنا - يادكتور - فى مدينة أنكور فكنت أستمع إلى الموسيقى الرخيمة التى يعزفها أهل كمبوديا والتى كانت تهدهدنا طوال الليالى ، وكان لها مفعول المخدر اللذيذ الذى كان ينقلنا إلى عالم يذوب فيه كل شىء ويتواءم بعيداً عن الزمان . وكان هاينرخ شوتس هذا الموسيقى اللوثرى المسن فى ذلك المساء يوحى بموسيقاه وبكلماته الألمانية : أنا يارب ، أنا الإنسان المسكين ، [1] أنا أنا ، أنا أمامك يا إلهى ، أنا ، أنا الرجل المسكين ، أنا من أكون أنا ؟ هل فهمت يادكتور جزيرة الهروب ؟ هل هذا هو السؤال الذى يجب طرحه ؟ أو بالعكس هل هو الذى يجب أن نتجنب أن نطرحه ؟

(١) هذه العبارة وردت فى النص الأصلى بالألمانية .

الآن قد حان الوقت الذى يتحتم على أن أجيب فيه على التساؤلات . فأنا لا أستطيع أن أهرب إلى أبعد من ذلك ، يجب أن أبت فى الأمر وأن أوقع . وها أنا أسمع صوتًا بداخلى يأمرنى : " ثابر ووقع " . . .

على ماذا أوقع ؟ هذا معبد فى وسط الغابة ، وهذه أكوام من الحجر مبعثرة بغير نظام على ضفة النيل . هذا هو عملى . لقد تعلمت فن العمارة . هل يستطيع المرء أن يصدق أن كل ذلك التعليم لم يكن إلا لمجرد القيام بإعادة بناء الأنقاض ؟ قوس النصر الرومانى المقام فى وسط الصحراء الليبية . . . كان أول عمل أنجزته . لقد أعدت بناءه حجرًا حجرًا فى وسط الصحراء . هل هذا يضحك يادكتور ؟ تخيلك لهذا الشاب القوى الذى يقوم ببناء قوس نصر وسط الصحراء الجرداء ؟ لكن الأمر لم يكن كذلك فى الواقع . . . فأنا لم أقم حتى بتصميمه بل نقلته نقلاً : كنا قد هدمناه أولا لكى نعيد بناءه من جديد . من يصدق أنى وجدت هذا العمل مثيرًا ؟ لقد استغرق إنجازه سنتين ، وقمت به بمعاونة خمسين عاملاً كانوا يسكنون فى أكواخ خشبية ، وكانت هناك سيارة نقل تزودنا بالماء . كان عمرى ثلاثين عامًا . وقد اخترت لنفسى هذا العمل ، إذ كنت قد اكتشفت أن هذه هى رسالتى فى الحياة ، ومن أجلها تجاوزت مايعنيه الآخرون عادة بكلمة : البناء . فبدأت آنذاك رحلتى حول

العالم بحثًا عن الآثار الجميلة . لقد قمت بترميم الباغودات (معابد الشرق الأقصى) وأخذت أمشط القارة الآسيوية القديمة لكى أرمم أجزاء من حوائط أو ممرات وصفوفًا من العواميد من كل الطُرز ومن كل العصور . وبينما كنت أتقدم فى السن كان طموحى المهنى يتصاعد مثل الأباطرة المتعاظمين الذين كانوا يتحمسون عندما يشيدون المبانى فى كل أرجاء إمبراطوريتهم بضخامة مفرطة . لقد أعدت بيدى البناء الذى أقامه أمير هندى فى القرن الثامن فى قلب جزيرة جاوا . وترانى الآن فى صراع لإعادة بناء ما شيده أحد الفراعنة من الأسرة التاسعة عشرة . ومع ذلك أؤكد لك يادكتور بل أقسم لك إننى لم أكن واحدا من المغامرين الذين يجوبون أرجاء المعمورة بحثًا عن اللذة التى كانوا يشعرون بها عندما يكتشفون من خلال المصادفات المفاجئة تنوع هذه الأرجاء . لم أكن مثل تاجر العاديات المغرم بكل الأشكال الجميلة ، والذى يضع المجموعات التى يملكها فى داخل الكؤوس الإغريقية ، وجنبًا إلى جنب مصنوعات صينية عاجية ، مع سياط القبائل البدائية ، بجوار مراوح من طراز مثقل بالزخارف . إن كل عمل جديد كان يدعونى إلى أن أترك الأرض التى كنت أعمل فيها منذ سنتين أو ثلاث سنوات ، بعد أن تغلغلت فيها جذورى ، فكان على أن أترك عملاً كنت قد تعهدت بإعادة بنائه بنفسى ، وكل مرة كنت فيها مجبراً على

مغادرة تلك الأرض ، كنت أشعر بأن شيئًا ماقد انتزع من وجدانى تاركًا جرحا مؤلما فى أعمالى . كنت أكره كل بلد جديد أصل إليه ، إذ كان ينتزعنى من بلد آخر ، قبل أن تتحول هذه الكراهية إلى حب كنت أشعر به من جديد عند رحيلى المتجدد ، لقد كرهت مصر وأبغضت كمبوديا لأننى كنت أحب جزيرة جاوا . ومنذ أن تقاربت كل هذه الأقطار وهذه الأنماط المتباينة من الطرز المعمارية قد تقاربت مع بعضها البعض مع مرور السنين فى حياتى ، الآن أشعر فى نفسى لكل منها بنوع خاص ومختلف من المودة ، حيث يمكننى أن أحلم بالقبيبات الصغيرة من الطراز الباروكى والمعلقة فى معبد كراند نجار وبالزخارف القديمة جداً فى لوائح أكسى دون أن أكون مضطراً للإفصاح عن تفضيلى لأحدهما على الآخر ، لقد اكتشفت الآن أننى لم أكن أود أن أحب أبداً شيئًا آخر غير الكنيسة الرومانية الصغيرة المحاطة بأوراق الكروم لكونها عملاً بسيطًا من أعمال الفلاحين ذات الجدران الثقيلة التى تميز الأبنية الريفية ، وقد كحلت بالرمل أحجارها ذات اللون الأحمر الداكن تكحيلاً يتسم بالغلاظة ، ولكن عندما كان يدخلها المرء . . .

أصغ يادكتور !

عندما كان يدخلها المرء ويشعر بالهواء البارد ينسدل فجأة على كتفيه كالوشاح . . .

هل تفهم يادكتور ؟ إن المعابد الآسيوية التى كنت أرممها كانت بمثابة جبال من الحجر راسخة على الأرض ، ومثبتة فيها جذور ضخمة من الصخور . كانت ترتفع إلى السماء بذات القدرة والبطء اللذين ينمو ويرتفع بهما النبات ، وكانت تكتسى بالأزهار وبالغصون المتعانقة والمتداخلة . كنا نسير على ظهورها متبعين مسارات متعرجة كانت تنتزعنا تدريجيًا ، وتبعدنا عن العالم ، وتباعد بيننا وبين الناس والغابة والحياة والمدينة ، وتجبرنا على أن نصعد بمفردنا إلى أجواء نشعر فيها بازدياد النقاء والخفة باستمرار . عندما كان يصل المرء إلى القمة ، كان يجد نفسه وحيدًا ويخال له أنه أصبح منعدم الوزن . ولكن عندما كان يدخل كنيستى الصغيرة ، بينما يكتنف الظلال برفق الفضاء الممتد خلفه ، ويتركه وجها لوجه مع هذا الشعاع الفريد المنحدر من النافذة الصغيرة الخالية من الزجاج ، ويلتف حول أحد الأعمدة ، كان يحدث شيء يشبه التمدد فى هذه الثقوب المظلمة التى كانت تظهر حوله ، ويبدو لك أن كتلة الهواء المحبوسة بين تلك الجدران تتنفس هى أيضًا مقلدة حركة تنفس الإنسان . لا أستطيع أن أعرف إن كان هذا الانطباع يعود إلى شكل هذا الحيز المظلم والمنير فى آن واحد ، أم أننى أدركته فجأة عندما زرت لأول مرة هذه الكنيسة الرومانية الصغيرة ، حيث وجدت فى وسطها تلك الفتاة الجميلة والتى كانت تتحدث إلى ، أم أن تلك

التجربة الغـرامية التى كنت أمر بها حـينئذ ، وهذا التنفس الجديد والعميق الذى كان يتهيـأ فى كيانى ، هى التى تجعلنى أكتشف فى داخل هذه الحوائط روحًا ذات طابع فـريد منبثقة منها ، ترسـمها وتحاصرها وتحتويها ، ولـم أكن أدرى بعد إن كانت هذه الروح هى روح هذا المكان أو روح هذه المرأة . ولكننى كنت أستشـعر أنهما مترابطتان ببعضهما البعض ترابطًا قويًا يجعل جذورهما تتشابك ، وأنهمـا متـساويتـان فى القدم ، وأن الأشـياء والكائنات ممتـزجة ببعضهـا البعض منذ الأزل ، ومشكلة ومصاغة لتنسـجم مع بعضها ، بحيث إننى عندما تزوجت تلك المرأة تمددت جذورى أنا أيضًا فى الرحم الكبير الذى تكونت فيه الدهور القـديمة . وفيما بعد خلال السنوات التالية ، عندمـا كنت أنظر إلى وجه هذه المرأة التى كنت أحبهـا ، والتى كان جمالهـا الساحر يجعلنى أشـعر بأن نوعًا من القلق ينتـابنى ، وعندما كنت أتأمل هذا الثـغر ، وهاتين العـينين المغمـضتين اللتين كنت أحبـهما ، وهاتين الشـفتين اللتين لم أكن أكل من رسمهما بأصابعى ولمسهما بحنان ، وهذا الانحناء الخفيف والمثير لثـغـرها الذى لم أتامله قــط - بعد عناق الحب - دون أن أنشـد فى قـرارة نفـسى بـالإيطاليـة : قـبلت الـــضـحكة اللـــذيذة ، تذكـر هـــذه المقطوعـة . . . فهل كنـت أقـول أنا أيضًا مثل موسـيقى هاينرخ شوتـــس : أنت من تكـــون أنت ؟ تحت هذه الجفون المغـمضة ، وهذا الثغـر ، وهـــذه البشـــرة ،

تحت معنى الكلمـات والأعمال الصغيـرة العادية التى تؤدى خلال الحـياة ، وتحت تأثيـر الأيام والسنين التى تمر ، وهـذه التكشيـرة المضـحكة التى كانت ترتسم على مـلامح الوجه كـما تبـدو على صورة فوتوغرافـية قديمة ، عندما لم يكن العمر قـد يتجاوز سبع سنوات ولأن الشمس كانت تبهر العيون بينما تتدلى حلقات الشعر بسلاسـة ، وهذه الابتسامة التى تردد باسـتحياء فى غـياب بعض الأسنان اللبنية ودون الاكتـراث بالزمن الذى يمر ، وتحت تأثير كل ما هو مـتغير ، ورغم كل مـا يتغير ، يتـردد السؤال العتيـد مرة أخرى : أنت ، من تكون أنت ؟ كما لو كـان هذا السؤال مقرونا إلى الأبد بهذا الكم الهائل من العصور المتـراكمة خلفنا ، ومقرونا أيضًا بشكل الكنيـسة الصغـيرة وظلالها ، وكمـا لو لم يكن لهذا السؤال سوى أسلوب صلاة ، وكأنه لايمكن أن يطرح نفسه إلا فى مكان يوحى بوجود الله .

إنك تدرك تمامًا - يادكتور - أننى عندمـا كنت أستمع - بعد مرور سنوات عـديدة - إلى موسيقـى هاينرخ شوتس فى الطرف الآخر من العالم حيث شيدت المبانى التى تختلف اختلافًا تامًا عن كنسية صـغيرة مبنية من أحـجار بلا طين فى وسط الكروم ، وفى هذا الجو المشبع بالسعـادة وبالهدوء اللطيف المنبعث من هذه الليلة الكمبودية ، كان يتـصاعد فى نفسى شعور مفـاجئ بالكآبة يتعذر إيقافـه . وأنت تدرك طبعًا أن ذلك لم يكن نوعًـا مـن الحـنين

إلى الوطن فحسب ، يتصاعد من فؤادى مقرونًا بافتقاد البلد الضائع ، والجنة المهجورة ، والأيام السعيدة التى عشتها فى الماضى ، وكل هذه المشاعر التى تحييها الموسيقى بخبث فى ذاكرتى عندما تعيد ربط المشاعر الخفية المتجمعة فى وجداننا . لم يكن الأمر كذلك إلا أننى أعلم تمامًا أنه فى هذه اللحظة بالضبط خيل لى أننى أستشعر بل أشعر بشىء من اليأس الذى يعانى منه صديقى رولف . كان يبدو لى أننى قد أدركت أين تكمن المنطقة الحساسة والأليمة المخبأة والمطمورة تمامًا ، والتى لم أكن لأعرف إن كان يحاول نسيانها يومًا بعد يوم ودفنها فى أعماق نفسه ، أم أنه كان يحاول بحضور نى سووارتى - الفتاة اللطيفة الجذابة ذات الوجه الهادئ البرىء المجرد من الغموض - وبطريقته السلبية أن يجدد ما كان قد يئس من العثور عليه فى مسقط رأسه ألمانيا ، بين مواطنيه ، ومعاصريه ، وجيرانه ، وأصدقائه الموسيقيين . وليتسنى مرة أخرى طرح السؤال المأساوى المنبعث من وجه امرأة بل من مصير امرأة ، كما عبر عنه رامبرانت فى رسومه ، ربما كان يتحتم على رولف أن يغادر وطنه ويتخلى عن العصر الذى كان يعيش فيه ، ليهرب إلى عالم يجهل من هو رامبرانت ، ليتأمل فقط وجه نى سووارتى الناعم البرىء . ربما كان عليه أن يهاجر ويغترب ليكتشف مرة أخرى سر الوجود فى أعماق وجدانه حسب قوله . وأنا ، أنا ماذا كنت أفعل هنا فى جزيرة

بالى ؟ لماذا كان ينبغى على أن أمارس مهنتى كمهندس معمارى بين هذه الآثار المتبقية من حضارة لا أنتمى إليها ؟ ألم أختر وأمارس أنا أيضًا بشغف وبنوع من التفانى أنماطًا للحياة والعمل والتشييد لم تكن مطابقة لتلك التى كرست لها دراستى طيلة سنوات عديدة ؟ عندما كنت أستمع باحترام إلى أقوال العجوز شاك سموك كيف كان الشعور الذى ينتابنى ويجعلنى أتوق إلى موسيقى هاينرخ شوتس ؟ وعندما كنت أنا أيضًا أنظر إلى وجه نى سووارتى الحنون ؟ ما السؤال الذى كان يفرض نفسه على رامبرانت والسؤال الذى يحير هندريكيه شتوفلز وهاينرخ شوتس : أنت ، من تكون أنت ؟ وأنا ، من أنا ؟ عندما كنت أعزف على كل النايات التى أملكها ، وعندما كنت أمسك بين أصابعى ناى نانج سوى ، وناى أيد اباجوس باندجى ، وناى تليكتباتل أو ناى أحمد ، هل كان يمكننى أن أنسى أن نَفَسى لايناسب سوى ناى آخر ؟ لقد مضت خمسة قرون قبل أن يصقل العارفون أداء السلمين الموسيقيين الأولى والثانوى على الناى الباروكى الذى كنت أملكه ، كما أمضينا خمسة قرون فى صقل الروح البشرية ، ليؤلف باخ بعدها أغنية صقلية تعزف على ناى مثيل لهذا الناى الباروكى - وأن هذا اللحن كان فى جذور كيانى ؟

إن الذى يقتلنا - يادكتور - ويتسبب فى موتنا هو أننا لم نعد نستطيع الجزم بعدم وجود سوى حقيقة واحدة ، وأن نحمل

ذلك التناقض فى أنفسنا ، وأن نقوم بقتل جميع الحقائق بدحض الواحدة بالأخرى دون أن نجد حقيقة واحدة يمكننا أن نؤمن بها . بنغم ناى واحد كنت أملكه ربما كان بوسعى أن أرقى ثعبانًا لو كان هذا الناى ملكى أنا وحدى بدون منازع ، ولكن لو أننى كنت قد اخترت هذا الناى لم يكن بإمكانى تجاهل وجود نايات أخرى ، أليس كذلك ؟ يجب أن تمتلك القدرة على النسيان . إننا نعلم أشياء كثيرة جدًا . إننا نشابه هؤلاء النحاتين المصريين فى دندره وكوم امبو ، الذين تلقوا إبان العصر الإغريقى فنا مغايراً لفنهم ، فأصبحوا لا يعرفون كيف ينحتون . كانوا يظنون أنهم فى طريقهم إلى الإثراء ، ولكنهم فقدوا كل شىء . هل أستطيع أن أنسى نى سووارتى وجديه اجونج نجورا ؟ هل أستطيع أن أنسى العجوز نانج سوى ؟ هل يمكننى تجاهل وجود ايدا باجوس بانجى والساحر والأموات فى كمبوديا ؟ إن هذا الناى الذى أمسك به الآن كان الآلة الموسيقية لأحد السحرة من جبل الأفيال ، كان يعزف عليه خلال السهرات الجنائزية التى لانهاية لها لكى يطرد الأرواح الشريرة ، بينما تجلس النساء والنائحات حوله ليهدهدن المتوفى . إن هذا الناى لايمكن من خلاله عزف أكثر من أربعة أنغام على نمط أقدم الألحان الآسيوية ، وهى موسيقى الطقوس الدينية . بمقدورنا اليوم أن نعزف على هذا الناى ودون أى تغيير للموسيقى التى عاصرت

بدء العالم ، وعلى العـازف أن يجعل أصابعه تنزلق وتقـترب من الفتحات لينبعث الصوت متصاعدا ، فيرتعش ويتذبذب كالدبوس عندما يقترب منه مغناطيس . إنه ناى سحرى . وبعد سنوات من التمرين أصبح التغيير فى طبقة الصوت الذى يحدث عندما تقترب أصابعى من الناى يتـجدد فى كل مرة ألمسه فيـها . إن هذا الناى يجسد الفروق التى يتعذر إدراكها وتحديدها بين نغمين ، يمكنك أن تعزف أى لحن من هذه العلامـات الأربع ، عفواً ليس أى لحن : ليس ألحان مـوتسارت مـثلاً ، بل ألحان قـديمة جدًا ، تعـبر عن منتهـى عمق الشعـور ، ولا يستطيع الفكر إدراكـها ، إنهـا ألحان آسيـوية لم تأتنا من آسيا المعـاصرة بل من آسيا الـقبتاريخـية التى سبـقت قدمًا تاريخ الهند والصين وأنكور والتى لاتصل إليـها أى ذاكرة ، إذ إنها تعود إلى جـذور البـشرية . لقـد رفض الساحر أن آخذ هذا الناى مـعى ، كان يخـشى فى البداية من مـجرد أن ألمسه ، لاعتقاده أن الموسيـقى المعزوفة على هذا الناى كانت بمثابة أصوات الآلهـة التى تأتى مع أنفاس الأجـداد ، وأنه بإعطائى إياه كـان يسلمنى أصـوات هـؤلاء الأجـداد ، كـان على حق ، لماذا تسلمت منه هذا الناى ؟ هذا الـناى الذى كان يعـبـر - بواسطة أربع علامات موسيقية فـقط وببداهة ساحرة لايمكن وصفها - عن شىء مامنـصهر فى كـيان الإنسـان ، فى لغز الإنسان المعـاصر الذى توارثه بدون تغيير عبر الأجيال ، طوال عشرين ألف سنة ،

والذى يتعـذر التعبير عـنه بالكلام . إن هذا الشيء الغامض الذى يستـعصى على الإدراك قد يـكون الخوف ، التشـوق ، اليأس ، النداء ، وخصوصًا الخوف على النـقيض من الخوف ومقرونا به ، هذا النظام الكونى المبنى على الخوف والمشيـد عليه ، وهو يحاول بواسطة أنغام الناى أن يجعل من النظـام شيئًا أليفًا مسـتأنسا . . . كيـف يمكننى أن أعبـر عن ذلك يادكتـور ؟ ماذا يسـتطيع المرء أن يفعل بناى مثل هـذا ؟ ماذا فعلت به البشرية خـلال عشرين ألف سنة ؟ عشرون ألف سنة تخللـتها تلك السهرات الغامـضة بجوار الموتى وقد جلس السـاحر على حصـيرة محاولا اسـتئناس الموت بموسيقى الناى ، بينـما أخذت النساء تنشدن الأناشـيد الدينية فى ظلام الكوخ ، فى حين دأبت الضـفادع العـملاقة خـارج الكوخ على تنظيم نبـضات الـعالم الأزلى تحت ضـوء القمـر . . . إننى أمسـك هذا الناى بيدى وأنا أحـتضـر موشكا على الموت . لـقد تنبأت لى بذلك . وقلت لى إنك لاتستطيع أن تفـعل شيئًا للإبقاء على حيـاتى . ماذا عسـاى أن أفعل أنا بهذا الناى الذى أقـتنيه ؟ ربما ساحر من الجبال يعـرف ذلك . ربما كان فى مقدوره أن يفعل شيـئًا وربما فـعله . ربما كان يعـرف . ولكن لـم يكن بوسـعه أن يشفيـنى ؛ إذ إنهـم يعلمون جيدًا هناك أيضًـا أنه لايمكن إنقاذ المرء من لدغـة ثعبـان الصل الملكى . إن الأمـر لايتعلق بذلك . مـا الفـائدة التى يمكنك أن تجنيهـا من وفـاتى يادكتـور ؟ ليـس فى

جـودك أى فـائـدة . الموت ليس بشىء مـهـم ولكن هذا الذى
حدث : ثعبان الصل ، هذا الحيوان الزاحف القذر يبث فى دمى
ادة تسبب تقلصات تكزازية فى عضلات قلبى وتجعلنى أنفق مثل
ى حيوان . هذا هو مايحـدث لإنسان متحضر : إنسـان يحتضر
حيدا وقد أصبحت كل حقيقة شيئًا تافهًا بالنسبة له . لقد انقرض
لسحرة ، والقساوسة أصـبحوا لايعرفون ، إنهم يريدون أن يكون
لكلمات مـعنى ، ويقومون بتـرجمة التـعزيمات ، ولكن ياله من
جنون ! لاينبغى أن يكون للكلمـات معنى ، فهذا مـن خصائص
الأشيـاء . لقد قضـوا على الموسيـقى ويـريدون أن نستـمر فى
الإيمـــان بالحقيـقة . إنهم مثلك - يـــادكتور - لايســـتطيعون
أن يخـبرونى بشىء عن مـوتى . إنهم عـزل لاحول لهم ولاقـوة
بأيديهم الفارغة وأفـــواههم المليـئة بالكلمات . إننى أمسك بناى
وقد تلاشت من ذاكرتى الموسيقى التى يجب أن أعزفها عليه . لم
يعد أحـد يكتشف منذ قـرون عديدة سـوى حقائق غـير مـجدية
للإنسان . إن كل ماتعـــرفه يادكتـور غـير مـــجد بالنسبة لى ،
قم بتـحلـيل سم الصل ، ثم شـرّح قلبى وطـحـالى ، كل ذلك
لايعنينى بشـىء . . حتى لو فـعلت ذلـــك لإنقاذى وحـقـقت
شفائى فـيتحتم علىَّ أن أموت مرة ثـــانية . إننى حتى فى هذه
الحالة لن أعرف سـبب موتى . ربما يقوم أحـــد السـحرة بالعزف
على النـاى الآن فى هـــذا المكـــان حـيث تجلـس أنت ويرقى

الثعـبان الذى يسـبب موتى . أما الثـعبان الحـقيـقى الذى يوجد بداخلى أنا ، أما حـياتى وموتى ، فمن ذا الذى يسـتطيع أن يمنعه من لدغى بدون جدوى ؟ آه ! عندمـا تعثرت وسـقطت فى حقل الحيات ، كنت أعرف السـبب . وكذلك شو براك المسكين عندما كان يتلوى رعبًـا وجزعًا فى الغـابة ، كان يعـرف قطعًا لماذا يموت . إن عقلـى عندما كان عـمرى ثمـانى سنوات كان يدرك تمـامًا أين يكمن نظام الكون ، هل تعـتقـد أنه كان بوسع عـقلى وقتـئذ أن يصف عودتى سالما آمنا إلى منزلى حاملاً على ذراعى السلة المليئة بعش الغراب ، ثـم أفتح باب المنزل وأنا أقول : هـا أنا ذا ! لقد كنتم مخطئين . أيهـا الأهل المساكين ، إنكم تصـنعون من الحـبة قبـة . إن الأشيـاء ليست كـما تتـصورون . وهى لاتسـير طوع أوامركم يا أهلى . ها أنا ذا .

بل لا انتظروا .

إن الأمور ليست كذلك .

لاينبغى أن ينتهى الأمر هكذا . هناك شىء مـاغير صحيح . لقـد فات الأوان وكنت قـد مت . هذا ليس صـحـيحًـا . هناك خدعة ما . إننى أتذكر : قيلت أكذوبة . لقد كذب أحد . كذبت أنا . هذه الجملة المطبوعة فى جريدة المدرسة من كتبها ؟

لست أنا يادكتور ، لست أنا ، لم أقتل نفسى - بل قتلت ، من فـعل ذلك ؟ أصغ يادكـتـور وتذكـر ، هذه الجمـلة كـانت

مفخرتى ، كانت مدونة فى آخر سطر من موضوع الإنشاء ،
عندما قرأتها كان أقاربى الموجودون عندنا والمستمعون إليها
يضحكون ويقهقهون بينما أخذ جدى يقبلنى بحنان ، ويحمر
وجهى من شدة السرور ، كنت فى الثامنة من عمرى ، فكيف
كان يمكننى أن أوقف هذا السيل من المديح والتهانى الذى كان
يغمرنى حينذاك : " لا أيها الأهل البائسون ، إن موضوع الإنشاء
لاينتهى هكذا . لقد أجرى تغيير لنهايته ، مدام روسى قامت
بتغيير النهاية " . إنى أتذكر : لقد سقطت على أول درجة من
سلم المنزل . هذا ما كنت كتبته فى موضوع الإنشاء الذى
ألفته بوصفى طفلاً مطيعًا . لقد سقطت . وهرع أهلى عندما
سمعوا الصوت وعالجونى وأنقذونى . كيف كان بالإمكان كتابة
شىء آخر ؟ كيف أمكن للكبار أن يضحكوا عند سماع هذا
الصوت القادم من العالم الآخر ليروى هزيمتهم وعجزهم إزاء الشر
والموت ، ويتهمهم باللامبالاة ؟ هكذا لم يكونوا فى حالة تأهب
لإنقاذى من أى سوء . كانوا يبحثون عنى بقلق . لم يترقبوا
عودتى وهم واقفون خلف ركن النافذة رافعين الستار . لم
يقل أحد منهم بجزع : " وإن كان ربما ذهب إلى حقل
الأفاعى ؟ ". إن شخصًا كبيرًا - ألا وهو المدرسة - ابتدع
على نقيض الواقع ، ليضفى لمسة من السخرية على جريدة
المدرسة ، هذه النهاية المشينة التى يظهر فيها الكبار مغلوبين على

أمرهم ، لاخير فـيهم . إن أمى التى طالما حافظت على بحنان ، لتقينى مـن كل شىء ولتحمينى من كل سـوء ، لم تعد تبذل أى جهـد لحمـايتى بل تركتنى ملقى على أول درجـة من سلم المنزل لأواجه المـوت وحدى ، ياله من أمـر غريب ! أفـعلَى الرغم من أننى لم أبلغ وقتئذ سوى ثمانى سنوات كان عقلى يتميز بقدر أكبر من الحكمة ، إذ كان يوحى إلى بأن صـوت والدتى بعد أن نبهنى وحذرنى من الموت ، كـان يتحـتم عـليه أن ينقـذنى . وبعد أن وجه إلـىّ ظل المأساة ، الخطر ، والتـهديد بالموت ، كـان يجب عليه أن يبذل جهوداً جبارة لنجدتى وإنقاذى ، إلا أنه على نقيض ذلك حكم على بالإعدام ، تأمل يادكتـور ، تأمل الوضع جيداً . هنا يبدأ انهيـار العالم . فى هذه الجملة التافهة التى لم أكـتبها ، العـبارة المضـحكة والمفتـرض أنها صـادرة من فم طفل غـبى ، أصبحت فى مـوضوع الإنشاء بمثابة السقطة المعنـوية وكلمة النهاية وأكثر المسليات سخرية . كانت تلك العـبارات تسبق دائمًا وحتمًا قهقـهة الحضور وتثـير مزايداتهم فى المديح ، فعندمـا كانت تقرأ روايتى للقصة على الأقارب المتواجدين بمنزلنا ، كانوا يعجبون بها خصـوصًا وأن ماكتـبته أنا كمـوضوع إنـشاء استـحق شرف الطبـاعة ، فكان وجـهى يحمـر طربًا وفخـراً : وعـند السطر الأخيـر كنت ألزم الصمت بتـواضع ، فهل كـان من اللائـق أن أتصـرف بشكل آخر ؟ لاشك فى أن هذه الـنهاية للقـصة كـانت

رائعـــة الكمـال طالما أن الحضور أجـمعـوا على التصـــفـيق لها بحرارة ، كانت بكل تأكيد أفضل من تلك التى كـتبتها أنا ، فهى التى تقررت طبـاعتها ، وهى أيضًـا التى أثارت تدفق هذا الفيض من التهـانى . أيقنت أنى كنت أساند تزوير النـهاية . وبدافع من احتـرامى لحكم الكبار ، وبدافع من التواضع الممـزوج بالغرور ، وبدافع من الانصـياع بـعد العـصيـان ، لزمت الصـمت ، إذ إن صوت والدتى - التى كانـــت تحـــمـينى وتبعد عنى الخـــطر - أوهمنى بأنهـا توافق هى أيضًـا على النهايـة التى وضعـها مـزور القصـة فى آخر سطر ليتوج بـها موضوع الإنشـاء . ولكن كيف يمكننى أن أحل عقـدة التعارض التى تسللت بخبث إلـى كيانى ؟ كنت قد كتبت أصلاً أن العصيان يؤدى إلى الموت : كان الرد على ذلك أن الطاعة هى التى تعنى الموت بالنسبة لى . . . كان الصوت الذى يقى من الموت هو نـفسـه الذى كـان يسـبب الموت ، كـان صوت الحقيقـة مخالفًا للحقيقة . إن النجاح والتـشجيع والتهانى كل ذلك ينهال على من يكذب ، على من يلزم الصمت ، وعلى من يموت . كـان صـوت العقل والحكـمة هو صـوت المنهـزمين والفـاشلين ، وكان الـكبار يضـحكون عندمـا تأتى المنيـة لحصـد الأطفال . آه يادكتور ! هل تعـتقد أن بوسع أهل جـزيرة بالى أن يسخروا من رنجدا التى كانت تمارس السحر ؟ إننـــى أعلـــم أن فى هذا العـــالم الذى يفـــيض بالخـــضـر والـــنبـــاتـــات

المحفـــوف بالمخاطر ،مازالت الأم تسهـر فى كل دقيقة من الحياة على سلامة ولدها وقد لازمها الخوف . إنها تردد : لاتلمس النار إن النار تحرق ، لاتلمس الحيوانات فإنها تعض ، لاتقترب من الماء لتسلم من الغـرق ، لاتنظر إلى المرأة العـجوز لأنهـا قـد تحسـدك ، لاتضع هذا فى فمك فهو مضر ، لاتذهب إلى حقل الأفاعى فهى تلدغ . إن المرء يموت ، ويمرض ، ويتـألم ، ويخاف ، الأم تماثل المخـاطر مـراراً وتكراراً إلى أن تصـبح هى الطريـق الذى يسكله الخطر للوصـول إلى البشر ، بقـدر ماهى الدرع الواقـية منه . إن الأم تطعم ولاتتحدث إلا عن السمـوم ، إنها توفر الدفء ويتمثل فـيهـا فى نفس الوقت الخوف مـن النار ، إنها تحـمى وفى نفس الوقت تصف العالم حولها بأنه مليء بالغيلان المفترسة والحيوانات المؤذية ، فالأم تمثل الخوف كـما تمثل التخلص منه . ولكن من ذا الذى يسخر من السـاحرة رنجدا ؟ لا أحد يسخـر منها ، بل الكل يوقرها ويُجلّها ويخشاها ، ويتوسل إليها كل الذين يخشون شرها ويحـملونها وسط مـوكب حافل يمر بالقـرى التى يطوف حولـها الموت ، ويلجـأون إليهـا لكى تزور منازل المرضى . إنهـا لاتمثل الشر بل هى بمثابة الوسيلة التـــى يستـــخدمها الشر للإعـــلان عن قدومـه ، ثم للظهور ، وأخـــيـراً للزوال بواسطتهـا . كان صوتهـا يعلن عن كل خـراب وعن كـــل شفـاء . وصـــلت قـــوتهـــا إلى حـــد أن كل من كـــان يصـــارعـــهـــا يتـــسلح

ضد نفسه ، ويدمر نفسه فى النهاية . ليتك رأيت مثلى رقصة رنجدا . . . كان القرويون يرقصون رقصتها فى القرى عندما كان يتهددهم شر رهيب ، أو عندما كانت تحمر فوهة بركان أجونج مثلاً ، أو عندما كان ينتشر أحد الأوبئة . كان الموت يعانق الحياة فى هذه اللحظة ، فكان كل رجل يرقص تتقمصه الحياة أو يتقمصه الموت فيقفز فى حلبة الرقص شاهرا خنجره الماليزى ليهاجم الشر والخوف وليصارع رنجدا فى دوامة من الحركات السريعة ، وعند بلوغه ذروة الرقصة العنيفة كان يكيل الضربات لنفسه ويمثل موته هو ذاته تمثيلاً بارعًا ، حتى يسقط على الأرض فاقدًا الوعى ، بينما كانت تستمر الساحرة رنجدا فى أداء أعمالها السحرية فوق كل هذه الأجساد المتمددة أمامها . كان عندئذ يظهر فى الحلبة التنين الآخر ، قرين رنجدا ، الذى لايقل عنها شرًا ورهبة ، إلا أنه كان يهاجمها ويطردها . وكانت القرية تشاهد تمثيل موتها ، فكان الرجال يرقصون رقصة موت القرية ويقلدون أحداثه حتى يفقدوا وعيهم ، ولك ن هذا الموت لم يكن ليأتى أبدًا . إن الموت لاينتصر قط : كنت أعرف ذلك حق المعرفة وأنا أناهز الثامنة ، كنت أعلم أن القوة التى تهدد بالشر وبالموت هى أيضًا القوة التى تنقذ . كان هناك دائمًا التنين بارونج الذى كان يعيد بناء العالم ، ويقيم الرجال المتساقطين على الأرض إثر تغلغل الشر إلى نفوسهم . فتسترد القرية حياتها ،

ويعود إليها النظام فيبتعد الخوف ويضحك القرويون ، عندئذ فقط كانوا يضحكون . إن الأطفال الذين كانوا يتصببون عرقًا من الخوف عند رؤية رنجدا وسماعها تصرخ صرخة الموت ، بينما كانت تحتضن فى يديها الكبيرتين الفناء الذاتى والموت ، كانوا يعودون إلى منازلهم وهم يمصون أصابعهم وينامون إلى جانب إخوانهم الأكبر سنا . إن الأشياء عادت إلى حالتها الطبيعية . والأطفال يعلمون أن الساحرة رنجدا ليست لها الكلمة الأخيرة ، وأن النظام يعود دائمًا إلى القرية ، إذ إنه فى الواقع لم يغادرها أبدًا .

اننى أتذكر .

كنا نسير فى الصباح الباكر وأتذكر بعض أيام الشتاء التى كان فيها الجو شديد البرودة ، وبعد اجتيازنا آخر منازل القرية كنا نتابع السير بمفردنا عبر الظلام الدامس وفى صمت تام يزيده عمقًا خرير الماء فى الترعة تحت أقدامنا ، ولايشوبه صوت تكسير الثلج المتجمد طوال الليل عندما كنا نخطو عليه بأحذيتنا الثقيلة . كنت قد رفعت قبعة دثارى الأزرق ، وخبأت يدى فى أكمام سترتى الصوفية ، وكنت أسير بالقرب من رئيس الدير ومازال النعاس يداعبنى . وبدأت أشعر بالجوع . وأنا أعرف أن وجبتى الأولى بعد القداس قد تتكون من القهوة باللبن ، وهى التى

تعدها الراهبات ، وسأحصل عليها بعد ساعتين من الآن . كانت مجموعة مشاعر تصاحبنى حتى وصولى إلى الكنسية الصغيرة ، فكنت أشعر بنوع من الخفة التى يسببها الصوم ، وبعدم وضوح الأفكار التى تراود ذهنى بينما أنا مازلت شبه نائم ، والأحلام لم تغادر بعد مخيلتى ، وفضلاً عن كل ذلك كان البرد القارس يجمد رجلى وينخر عظمى . كنا نلتزم الصمت . وفى العودة كنت أعلم أن رئيس الدير سوف يطلب منى تسميع الأفعال اللاتينية ، ويحكى لى شيئًا من تأليف بلوتارك [1] أو من كتاب دى فيريس [2] اللاتينى الذى يروى ترجمة حياة مشاهير سكان روما . إننى أتذكر قصتى كوريولان [3] ومانليوس توركوتس [4] ، إلا أننى لم أقابل أبطال روما القديمة عندما كنت أجلس على المقعد المصنوع من خشب الصنوبر وسط زملائى من الصبية . لقد تعرفت عليهم - بمفردى - بصفة استثنائية . أما صفاتهم التى اتسمت بالقسوة والغلظة فقد اقترنت إلى الأبد بشىء مبهم ذى شكل حاد وقابل للكسر ، يوحى به صوت

(١) بلوتارك : كاتب سير يونانى ، أشهر آثاره " حيوات متوازية " .

(٢) دى فيريس : مؤلف باللاتينية . حرر سنة ١٧٧٥ يروى تاريخ الدولة الرومانية ، واستخدم لمدة طويلة لتعليم اللاتينية .

(٣) كوريولان : رجل دولة رومانى ، عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، قهر الفالكس (٤٩٣ ق.م) ، حكم عليه بالنفى لتعديه على حقوق الشعب فتمرد على وطنه .

(٤) مانليوس توركوتس : قنصل رومانى فى ٢٣٥م . حكم دكتاتوريا - تغلب على القرطاجنة فى جزيرة سردينيا .

الأقدام التى تشـقق طبقة الجليـد ، ومنظر الشجيرات المجـمدة ، والأثر الناصع البـياض المرسـوم على الطريق الذى كـستـه الثلوج خلال الليل . كنا نسـير صامـتين . وعندما كنا نصل إلى كنسـية سيدة الخلاص الصالحة ، المنعـزلة بين الأشجار فوق الشرفة المطلة على النهر ، وعندما كان القس يدير المفـتاح فى قفل الباب ، كنا نسمع من الجانب الآخر صريره مضخـمًا تضخمًا هائلاً وناتجًا عن صدى رنين القمة ومترددًا من عـمود إلى آخر . كنت أنتظر سماع هذا الصوت كل صبـاح ، وأترقب حدوثه ، وأنتظر اللحظة التى ينفتح الباب فيها محدثًا الصرير هو أيضًا . كان يخيل لى فى هذه اللحظة أن عالما آخـر - عالمًا هائلاً وصاخـبًا - انبثق فـجأة وشق سكون الليل المنصـرم . كنا ندخل فى نوع من الكهـوف الرنانة ، حيث كـان كل شىء يكتسب بعـدًا ممتدًا بلا حد . كـانت خطانا تحـدث جلبة جـافة بلا صـدى حتى بلـوغنا العتـبة ، ثم تسـبب تدريجيًا شـلالاً من الصدى ينهمر على سمعنا ، بينمـا كنا نقترب من الضوء الأحـمر الصغير الذى كـان يظهر فى مؤخـرة المعبد ، مشيـرًا إلى المكان الذى كان يتـــواجد فـيه الرب . كانت طبـيعة جميع الأصوات تتغيـر فجأة فى الظــــلام الدامس ، وتتضخم بلا حد من جراء هذا الصـدى الذى كان يبـــــدو وكأنه يغـير مظهر أصغـر حركة من حـركاتنا فى اللحظة التى كـانت تـــظهر فيـها علامـة الوجود السـرى للرب الإله . كان القس يقوم بإشـــــعال

قنديل صغير يصدر ضوءاً باهتا لايكاد يصل إلى بداية القبة محدثًا متاهة من الظلال المتشابكة بين الأعمدة الجانبية : وكنت أتوجه إلى هذا المكان لكى أفك الحبل المربوط بالجرس ، ثم أجذبه برفق وقد غمرتنى فرحة لاتوصف . كنت أسمع رنينه الخفيف يصل إلى من أعلى ، من الجانب الآخر من الجدار ، فيبدو لى لطيفًا ومفرحًا . وسرعان ما كنت أشعر بالحبل يشدنى إلى أعلى بلطف وحزم مثلما كنت أسحبه أنا إلى أسفل . هذا الحبل المتسم بالمودة والعناد فى آن واحد ، الذى كان يتجاوب مع مداعبتى له بمداعبة مماثلة ، كان بمثابة النداء لاستيقاظ المصلى الذى كان ينم فجأة عن حياة خفية ومكتنفة بالأسرار . وأيقنت أننى أطلقت بذلك أنواعًا من القوى هبطت من أعلى لتتجاوب معى مثلما أتت هذه القوة اللطيفة لتجذبنى بحنان نحوها ، وكنت أدعوها لجذبى مرة أخرى بشدها نحوى من جديد . إننى كنت أدق الناقوس لمدة أطول مما كان يكفى لنداء الأربع أو الخمس عجائز من النساء اللاتى سوف يدخلن فى اللحظات التالية . عندما كنت أعيد تعليق الحبل على مسماره وألحق برئيس الدير فى الهيكل كنت أجده قد أضاء الأنوار دون أن أنتبه إلى ذلك ، وقد ارتدى ملابسه الكهنوتية البنفسجية اللون الملائمة لتلك الأيام من شهر ديسمبر ، والتى سوف تصبح مذهبة بعد حلول عيد الميلاد . كان يتصفح كتاب صلوات القداس وهو

يبحث عن الصلوات الخاصة بهذا اليوم ، بينما كنت منهمكًا بأعمال أخرى . كنت أشعل شموع المذبح ، وأضع فى مكانها قاورورتى الماء والنبيذ اللتين أثلجهما برد الليل القارس . كنت أسمع الجلبة التى يحدثها الباب كلما يفتح ويغلق بعد مرور النساء اللواتى كن يخترقن الكنيسة للوصول إلى الصفوف الأولى حيث يركعن ، وقد لبين نداء الناقوس .

عندما كنت أفرغ من إعداد كل الأشياء اللازمة والطقسية ، كنت أعود إلى الهيكل ، حيث يكون القس مستعدًا ، فيقول لى مبتسما :

لعلك لن تنسى تلاوة المرد ليتقبل الله [١] من يديك . . . مثلما فعلت ذات يوم .

حقًا إن اللحظة التى كان يتلى فيها مرد : " ليتقبل الله " ، كانت تحدث فى نفسى جزعًا غامرًا ؛ لأن السر الذى كنت أشترك فى تأدية طقوسه كان عظيم الخطورة ، وكانت الشعائر التى كنت أساهم فى خدمتها وعمرى اثنا عشر عامًا دقيقة بمكان ، بحيث كانت كل جملة منها مقدسة ، وإحساسى بالمسئولية عن تتابع الشعائر ، وخوفى من نسيان كلمة منها ، كانا يملآن نفسى بالهلع . كنت أخشى مقدمًا وسلفًا صلاة التقدمة ، إذ كان على أن أقوم بالعديد من الأعمال ، كإعادة القارورتين على الصينية ، ووضع الصينية فى المكان المخصص

(١) هذه العبارة وردت فى النص الأصلى باللاتينية .

لهـا ، ثم طى الفـوطة التى يمسح بهـا الكاهن أصابعـه ، وأعود للركـوع فى مكانى على يمين المذبح بعد تـأدية ركعة أسـفل درج المذبح ، وكنت أخـشى دائمًا أن أصل مـتأخـرًا لأقرأ فى كـتاب الصلوات المرد الرهيـب الذى لم أتمكن قط من حـفظه عن ظهـر قلب . كـان القس يسـتـرسل فى تـــلاوة صـلواته ، ولـم يكن ليدرى مـا يختلج فى نفـسى من قلق وكيف أننى فى حـاجة إلى بعض الوقت لألتقط أنفاسى ؛ لأننى كنت أنافـسه فى هذا السباق منافسة مضنية . وكانت نبضات قلبى تتضاعف إلى أن أفلح أخيرًا فى تلاوة المرد التـالى ، بينما كـانت فرائصى ترتعـد ، وهو المرد الذى كنت لا أتقن تلاوته ، وقد أصبحت أجـيده أكثر من مردات القداس الأخرى لأتفادى الشعور بالقلق كل صباح : ليتقبل الرب من يديك هذه الذبيحة تسـبيحًا وتمجيدًا لاسـمه ولكى تعود علينا بالخير والبركات [١] . . . آه كم أنت مـخطئ يادكـتـور إن كنت تبتـسم بسخرية من المبـالغة فى العـــناية بمعـــــنى الكلمات التى يبديها صبى صغير فى الثـانية عشرة من عمره ، تلك العناية التى تسميها وثنية الشعارات بتـعبيراتك العلمية ! إن الإلـــه عز وجل هو الذى كـان يستدعى احـترام مـعنى الكلمات . إن الـصبى ذا الاثنى عشـر عامًا كان مهـتمًا بصون جـلالة الإلـــه . وإن كان قلقى ناجمًـا حتمًا عن الشـعور بالقـــوة والأمان ، وهو شـعور لايوصف ، منبـثق من هذه الطقـوس الدينية التـــــى كـــنت

(١) هذه العبارة وردت فى النص الأصلى باللاتينية .

خادمًا لها والتى بواسطتها كان يتواجد الإله . وكان تواجده يتسم بالجدية والقوة ، يملأ العـالم ، كما كان يملأ نفسى بشـعور بالقوة والوقار . كانت عبارات العبـادة هى الكلمات التى كنت أحبها ، وكـانت تصل إلى وقد تضـخمت وتجلـت بالتعـبيـر عنها باللغـة اللاتينيـة ، الأمر الذى كـان يزيدها قـوة وجمـالاً لنتناول ولنجل يديك المقـدستين والموقـرتين من جلال مـجدك [١] . يجـب أن تصدقنى يادكتور . إن هذا المصلى - مـصلى سيدة الخلاص - لم أره منذ كنت أخدم فيـه القداس عندما كان عمـرى اثنتى عشرة سنة . وأنا أعلم الآن أنه لم يكن رائع الجمـال ، بل قد يبدو لى الآن أنه دون المتـوسط ، وكان ملـيئًـا ببـعض الصــغـائر التى تنجم عن التزمت ، كان المكان الذى عرفت فيه السعادة ، نعم السعادة التى تمثل النعمة ، أى الهبة التى يمنحـها الله وفقًا لمفردات المصطلحات الكنسية التى كـانت دارجة وقتئـذ ، وكانت تسميهـا النعمة وهى متـدثرة بشىء من روح الشـباب والحيـوية والانشراح والـهدوء . كنت أحب الله ، وكان اللـه (سبحانه وتـعالى) يطلب منى أن أقـوم بكل المراسـم وأتلو كل هذه الكلمـــات ، وكنت أبذل كل جـهدى لأنـطق هذه الكلمـات كلـــهـا باحـتـرام وخشـوع . وبشفـاعتى كان ينزل شىء ما من عنـــــد اللـــه على العالم ، شىء يوحى بالعـظمـة والرصـانة ، وكـــان يـــشع فـى تــــك اللحــظة من هـــذا المصلى ويـــفيض عـــلى الـــعــالم كله .

(١) هذه العبارة وردت فى النص الأصلى باللاتينية .

لم يكن الشر يسـيطر بعد على أى شيء ، كيف كـان بوسعى أن أدرك أن صوت القس ، الذى كـان يجعل الرب يحل بيننا لأجلى ولأجل النسوة الراكعات خلفى فى شبه الظلام ، كان صوت يهوذا الخائن ؟ كنت قـد قدمت له القـارورتين ، وصببت على أصـابعه الماء لتطهـيرها ، وكان بصـوته الرخيم الجـميل يتـضرع إلى الإله الذى كنت أحبـه والذى كان يمنحنا هو وحـده كل اليقين ، وكل الثقة ، وكل الوفاء . كيف كان يمكننى أن أعلم أننى سوف أسمع بفـزع فى يـوم من الأيام - وفى ملعب المدرسـة - هـذه الجـملة صادرة من فم أحد التلامذة الكبار :

- تعلم يا شارليه ، لقد خلع ثوب الكهنوت .

- خلع ثوب الكهنوت ؟ ماذا تعنى ؟

- لقد هرب مع امرأة .

هذا صحـيح بالفعل ، أن القس اختفى . قـيل إنه مريض ، ثم كان لنا مدرس آخر للاتينية ، لا أتذكـر وجهه . ولـم يعد يقام القداس فى كنيسـة سيدة الخلاص ، ربما كان يقيـمه كاهن آخر ، وربما كان يكلف صبيـا آخر بخدمته . كنت أستيـقظ بعد ساعة ، أى فى نفس الوقت الذى كان يستيقظ فيه التلاميذ الآخرون . لم أعد أحتـسى القهوة باللبن عند الراهبات الـصالحات . لاشك فى أننى كنت سعيداً بتمتعى بالنوم فـترة إضافية ، إذ أصبحت أذهب

إلى القداس مع الآخرين . ولكننى كنت أتحسر على القداس الذ
كان يجـعلنى أستـمتع أنا وحـدى بميزة فـريدة ، وكـذلك عل
مشوار العودة بصحـبة الكاهن ، وعلى الحكايات التى كان يروي
لى . كنت أطرح على نفسى بعض الأسئلة التى لم يعد بالإمكا
الرد عليها ، هل قصة مانليوس توركوتس الذى ضحى بابنه بنفس
طاعة للناموس ، هل هى قصـة حقيقية ؟ وماذا كـان سيحدث ا
رفض مانليوس توركوتس أن يفعل ذلك ؟ وإن كان قد أخفى اب
بدلاً من أن يتركهم يقتلونه ؟ إذ إنه كان الملك ، ولو كان لجأ إل
الغش لإنقاذ ابنه ؟ فهل كان الله سيعاقبه ؟ ألا تزال الكلمات الت
يقولها صالحة عندما تخالف أفكارنا أقوالنا ؟ أين تكمن الحقيقة
أهى فى الكلمات أم فى الأفكار ؟ هل كان الله يحل بيننا استجاب
لابتهالات رئيس الدير ؟ هل كـانت النسوة اللواتى يتناولن القربا
ويؤمن بوجود الرب " فـيه " ، هل كن يتـناولن الله فـعلاً
هل كان الله يصـغى إلى ابتهالاتى عـندمـا كنت أصـلى
وهل كان يصـغى إليها أكـثر مما كان يصـغى لصلوات القس ؟ إ
كان الله يـصغى إلى ، فمـا كانت الفـائدة من حركـات وكلمات
القس ؟ هل كان الله سـيحل فى قلبى بدون تلك الكـلمات ؟
وإن كان لم يحل فـى قلبى بسبـب القس ، فـما كـانت فائد
حبى لله ؟ هل كان الله قـد قرر معاقبـتى أنا بـسبب القس ؟
وهذا القس ، هل كان قـسا خـارق القدسـيـات ؟ وعندم

كان يتحدث عن الله ، هل كان يجب تـــصديق أقواله ؟ وكيف يتسنى لنا أن نعلم ماذا يريـد الله ؟ هل يريد الله الشر ؟ وإن كان الله لايريد الشر ، فلماذا يوجد الشر ؟ وكيف يمكن للمرء أن يميز بين الخير والشر ، إن كان القساوسة يكذبون ؟ أعتقد أنى مرضت فى تلك الفترة كلـها ، وقامت الراهبات الصالحـات بمعالجتى فى جناح التمريض ، وهكذا لم تقتصر عنايتهن بى على تقديم القهوة باللبن فى الصباح بعد عـودتى من القداس ، بل كانت تشمل كل شىء : الغذاء ووجبة خفيفة عند الـعصر والعشاء ومشروبًا ساخنًا معـدًّا من الأعشاب الطبـية والأدوية . وكنت فى أغلب الأحـيان وحيدًا فـــى جناح التـمريض ، باستثناء الفتـرة التى تلى الوجبات ، وأثناء ساعة العناية الطبية ، عندما كان يمر المصابون والمزكومون ، وعندما كان بعـض الزملاء يحضرون لزيارتى . أما طـوال ماتبقى من الوقت فقـد كانت صحبـتى تقتصـر على الأخت حنة البدينة التى كانت تحضر بعد الظهر لتنشية وتضليع أغطية الرأس للراهبات بجوارى ، وهى تسـبح بشكل لاينقطع طالبة منـى أن أتولى عنها عـد حبـوب المسـبـحة ، ثـم كانت تقـص علىَّ حيـاة القـديس ترسيسيوس [(١)] ذلك القديس الصـغير الذى كـان فى سنى عندما مات مرجـوما وهو يحمل القربان المقـدس على قلبه . ولكن لم

(١) حدث ، من أوائل شهداء المسيحية ، اغتيل رجما .

يكن فى استطاعتى أن أطرح أسئلة على الراهبة حنة بالذات ، أليس كذلك ؟ إنها كانت تكتفى بالتحدث إلىَّ ، بينما كانت تفوح فى الهواء رائحة النشاء والكى ، تلك الرائحة التى كانت تغمرنى وتغلف أيضًا - بنوع من الحنان الفظ والأجش - هذا الحبوط الذى كنت أشعر به فى أطرافى ، والذى كانوا يقولون إن سببه يعود إلى مرضى ، وكانت تلك الرائحة تغلف كذلك هذا الشعور بالحزن بدون سبب ، والذى كنت أعتقد أنه ثمرة الوحدة والملل . هل كان باستطاعة الأخت حنة المسكينة الساذجة أن تفهم شيئًا ؟ إنها كانت مع مشروباتها الطبية العشبية الساخنة مثلى أنا عندما كنت أهرول لإحضار حقيبة الإسعافات الأولية ، بينما كان شو براك يحتضر فى يأس ، وبينما كان يحيط به الفلاحون ليحملوه وهم يتعثرون نحو سيارتى الجيب . وكنا قد أخطأنا فى الشخيص ، أى فى التعرف على نوعية الثعبان . أنا أيضًا كنت قد أعطيت شو براك فرصًا عديدة للتنعم بالسعادة . فكم كان يشعر بالكبرياء والفخر عندما كنا نعيد بناء الأبواب المحاطة بالزخارف المتداخلة من الزهور والغصون ، وعندما كنا ننتزع من الأنقاض بقايا تلك الراقصات الفاتنات بابتساماتهن الساحرة ، ونعيد إحياءها . . . ولم يتبق له شىء آنذاك من هذه المسرات الوهمية وهو يواجه الفناء . لقد أفلحت مدام روسى هى أيضا فى إسعادى . كانت تقول لنا إبان الدرس وهى تقهقه :

" لو عاد الإمبراطور شارلمان اليوم لشعر بالذهول ، وتردد ألف مرة قبل عبور الشارع ؛ خوفا من سرعة السيارات " . . . وكنا نضحك معها . وكنت أضحك أنا لتصورى شارلمان البدين وهو يدور حول نفسه كالنحلة - على الرصيف - بلحيته المتدلية على صدره . كنت سعيدا وفخورا فى نفس الوقت . نحن الصغار أبناء السنوات الثمانى كنا أقوى بكثير من شارلمان . . . لم يكن لدينا بعد التلفزيون ، لكن كان استعمال المذياع منتشرا ، وكانت مدام روسى تلح قائلة : نحن نتحدث منذ سنين بالتليفون ، ونستعمل المصاعد فى منازلنا . كنت أعلم أنا أكثر بكثير من شارلمان ونابليون . عندما كانت تقلنى سيارة والدى ، وكانت تبدو الأشجار مهرولة على جانبى الطريق وكذلك المنازل والمزلقانات - كنت أتصور نابليون جالسا بجوارى على المقعد الخلفى مذهولا ، وكنت أضحك وحدى من هذا الرجل العظيم المسكين وهو يبدو مذعوراً من السرعة . كانت مدام روسى تقول أيضًا : "سوف ترون عندما تكبرون ، سوف ترون كل الأشياء الجديدة التى لم تخطر ببال أهلكم . سوف تسيرون بسرعة تعادل عشرة أضعاف السرعة الحالية . . . " . وها هو ذا أبى ، الذى يقود السيارة التى جعلت من نابليون المسكين الجالس بجوارى أضحوكة - وإثر حدوث نوع من التنافذ - بدأ يتلقى بدوره شيئا أخذ ينحدر من نابليون عليه ، أو - بعبارة أخرى - كان يسيل

من هذا النابوليـون الخيالى - الذى أجلسـته مخـيلتى بجوارى - وينسكب على أبى وهو يقـود سيـارته الفارهة التى كانـت تسابق الريح ، ومن جـراء هذا التنافذ ، أخـذت قدرته تذبل وتضـعف وتتضاءل ؛ لأنه كان يجهل أشياء كثيرة ، كان يتعذر عليه معرفتها بسبب هذا الجـهل الذى لايدركه ، والذى قد يجـعله يدور حول نفســـه عشر مرات - على زاوية الرصيف - قبل عبور الشارع ، عندما سوف تعادل سرعة السيارات عشـرة أضعاف سرعتها الحالية.

وهكذا يادكتور أخذت كل قوة تتضاعف ، أصبح من الممكن أن يتسلل الشك إلى مـداركنا . وعندما كان أبى يشـرح لى ما كنت أجـهله ، بات من الممكن أن أشك فى مـعلومـاته . وإن كـانت معلومات أبى غير وافية وغـير كاملة ، فماذا عساى أن أعلم أنا ؟ إذا كانت إنسـانية أبى غيـر مكتملة وتفتـقر إلى الكمال ، فـماذا سوف أصبح أنا ؟ كانت مـدام روسى تسرب إلى أذهاننا نوعا من السم كـان يلوث كل نقـاط الارتكاز المتـاحـة ، الواحـدة تلو الأخـرى ، ويجـعل كل تدليل لمعلـومـــاتنا يتـــآكل بطريقـة مستـترة وغادرة كما لو كـان بتأثير أحماض مـا . كان بوسعنا أن نسخر من شـارلمان عندما كانت تحدثنا عن تاريـخ فرنسا . ولكن لماذا كانت تتحدث عنه كما لو كان أحد الأبطال ؟ كـــان بإمكانى أن أسـخر من نابـليون . ولكن من كـان ترى هذا العـــبقـرى المعوق ؟ لقد تفتح فى ذهنى شىء ماجعلنى أستطيع أن أسخر من

أبى كل مرة تصورت فيها بمخيلة صبى عمره ثمانى سنوات عالما حافلا بأشياء عجيبة وسريعة .. إن مدام روسى التى كانت تعتقد أنها تمنحنا ذريعة لنبدو عظاما فى نظرنا ، ونحصل على الثقة والقوة ، لأنه سوف يتاح لنا وحدنا عندما نكبر أن نرى هذا العالم المتكاثر الذى كانت تعدنا به ، كانت مدام روسى المسكينة تمزق فى وجداننا ذاك النسيج عينه الذى كنا نحاول تكوين شخصيتنا منه ، كانت تشوه شخصية الإنسان الناضج التى كنا نبنيها فى أنفسنا . عندما يفقد طفل عمره ثمانى سنوات صورة الرجل الناضج ، صورة للرجل المثالى ليكون نفسه على نمطه فيصبح رجلا ، ماذا يستطيع أن يفعل هذا الطفل يادكتور ؟ لايسعه سوى أن يبقى صغيرا . ولن يستطيع أن يصبح رجلا بمجرد إدراكه أنه سوف يرى أشياء غريبة ، أو بواسطة الخيال العلمى ، أليس كذلك ؟ إن مدام روسى هذه المسكينة البائسة التى كانت تقرأ واجباتى فى الفصل والتى كانت تمنحنى كل هذا القدر من السرور والتى . . . هل تتصور ذلك يادكتور ؟ هذا العالم الذى لم يتوقف عن أن يخترع ويمحص ويحسن ويعقد ويبتدع ويصنع فى شتى المجالات - أضحى فى الواقع يجرد الناس تدريجيا من هويتهم ، عالم يتجدد باستمرار ، ويمنعهم بالتالى من تقييم أنفسهم فى المستقبل دون أن ينقض فى مخيلتهم

وضوح تصـورهم للنمط الذى يحتاجـون إليه ليبلغوا الرجولة ،
وهو عالم يفـرقهم فى نوع من اليأس لايدركون مصدره ، كلما
وفر لهـم مبتكرات جـديدة تسمح لـهم بالتمـتع بحيـاة أفضل .
مسكيـنة مدام روسى ، فهى كـانت تظن أنها تدخـل السرور فى
أنفسنا - كانت تدخل فيها هذا السـرور فعلا - وكانت تغير نهاية
واجباتى من موضوعات الإنشاء الفرنسية . فتنهيها بموتى . . . إن
كل الفرص السعيدة ، وكل الابتهاجات ، وكل المقابلات قد تأتى
بعد فوات الأوان . لقد فات الأوان يادكتور ، إنها هى التى قالت
ذلك : فات الأوان ، إذ كنت قـد فارقت الحيـاة . ولما يتسنى لى
ذات يوم دخول مصلى سان فريئول ، ولما ألج المنزل الكبير الهادئ
والرطب ، كانت تقـيم هذه الفتاة مـع والدها ، وفى المساء وهى
تمر أمام الساعة الكبيرة ذات الرقاص والتى تكون قد توقفت ، قد
تدير الفتـاة المفتاح القديم الذى يحـرك الأثقال الرصاصيـة ، وقد
تدب الحيـاة من جديد فى هذه الساعـة وتعود تدق نبضـة الزمان
البطيـئة والرزينة ، نعم إن تلـــك النبـــضات قد تـكون صوت
الزمان الذى يتـحرك من جـــديد ، وقد ينتابنى نـفس الإحساس
الذى تشعـر به شجرة صغـيرة عند غرسـها تمتد وتتـغلغل وتفتت
التربة وتنتشر فيها . وأنا أيـــضا وجدت تربة أنمو فيـها . لقد
نشـرت جذورى فى هذه المرأة كـمـا لو كانت تـربة . وكنـــت
أستــــغرق فى رمال الزمـان . وكنت أجد من خـلاله جذورى
الضائعـة . فأصبحـــت الابن المتـبنى لماضيها . لـقد فات الأوان

يادكتور . وبينما كنت أنعم بسعادتى ، لم أكن أستشهد وقتئذ سوى بهؤلاء اليتامى الذين يجهدون فى إثبات أصلهم الشرعى ، ويبحثون فى يأس عن كل البدائل الممكنة ، والتى يتخيلون أنها حقائق فيبحثون عنها بين الأساتذة والأبطال والأساطير ، وهم لايكلون من تغيير هذه البدائل فيلجأون إلى تصرفات عشوائية للوصول إلى هدفهم ، ثم يبادرون إلى التخلص منه ليتعلقوا بشىء آخر . لقد اجتزت أراضى قارة آسيا كلها ، واخترقت كثافة مايوحى به ماتبقى فيها من آثار الأزمان الغابرة ومن تاريخ شعوبها . لقد أعدت إقامة كل ماشيّدوه من روائع فنهم المعمارى . وفعلت ذلك بيدى حتى بليت من الإرهاق . إن هذا السعى المستميت لإعادة بناء صرح آخر شيده الإنسان وشرع الزمان فى محوه ، قد يبدو بمثابة محاولة لوقف عملية النحر التى تتولى الطبيعة القيام بها ، فتقضى على هذا العمل ويسدل عليه ستار النسيان ، وكأن هذه الرغبة القوية المتعذر كبحها والتى كانت تدفعنى إلى المضى قدما وإلى إعادة الشروع فى العمل ، فى مكان أبعد ، لم تكن سوى نوع من الهوس يدفع إلى البحث والتنقيب بلا كلل لاستكشاف طبقة جديدة من تاريخ الإنسان استولى عليها وامتلكها . وكل مرة كنت أفعل ذلك كنت أبذل جهدى بلا جدوى . . .

ولكنك لاتستطيع أن تفهم . إنك حتى لاتعرف مدينة أنكور فات . . . حدث ذلك ذات صباح من شهر نوفمبر ، على الشرفة العليا من الناحية الشرقية ، وهى التى كنت أحبها لأن فيها شيئا ما يتسم بالقسوة والشراسة ، إذ كانت تطل على الغابة أيضا ، وفى وقت مبكر جدا ، عندما ينساب شعاع الضوء الذهبى ليداعب الأجزاء العليا من الأبراج ثم ينزلق عليها ببطء وبهدوء وبصمت ، فى اللحظة التى تسبق أول إنذار يطلقه الزيزان قبل أن ينفجر صغيرها المزعج فور بزوغ أول شعاع للشمس من أسفل الغابة . ماذا حدث ؟ ماذا رأيت ؟ فيم فكرت ؟ إنى أتخيل أننى رأيت - فى الشمس التى كانت تغمر بضوئها الأبراج العالية - ثعابين الفاجا الكبيرة المنحوتة فى حجر الحث ، وقد تآكلت من فعل الأمطار والقدم ، بعضها منزوعة الرأس ، والبعض الآخر قد تسلخ أعلى رأسها - أو ذائبة - وقد عادت إلى أصلها الحجرى . الحجر الذى نحته وصقله الإنسان وقد عاد إلى أصله ، إلى الحجر الخام كما كان قبل ظهور الإنسان . ها هى تماثيل الإنسان وآلهته وقد تلاشت نصف ملامحها وتحولت تقريبا إلى أحجار كما كانت أصلا . إنك ترى أن ذلك لايعنى شيئا . لم يكن ذلك أمرا جديدا بالنسبة لى ، إذ كنت أرى ذلك كل يوم ، فأضحى بمثابة هاجس يومى لايفارقنى ، أنا ، عالم الآثار الذى مازال يجاهد منذ خمس عشرة سنة فى سبيل هدف واحد ، ألا وهو إنقاذ الأطلال من

الفناء . ياله من طموح غير معقول ، أليس كذلك ؟ وياله من مشروع يدعو للسخرية . أنت تبتسم . . . إنك لست على حق . إن الأمر لايتعلق بى ولا بما كنت أقوم به من جهد لإنقاذ بعض الآثار ، إذ كنت مدركا لفشلى مسبقا ومتأكدا من أننى لن أتغلب أبدا على تأثير الأمطار ، ولا على التعفن الذى يأتى على الحجر بسرعة تكاد لاتقل عن السرعة التى يفنى بها الجثث البشرية . ما الجدوى من هذه الإمبراطورية التى دامت قرونا عديدة من حياة الملايين من البشر ، ومن تعذيبهم وإهانتهم ، ليعيشوا ويشيدوا ويبتكروا ويبنوا ؟ وما الفائدة من عملنا ، ومن إيماننا ، ومن العدالة والمعرفة والجمال والفعل ، إن كان بناء الكاتدرائيات بناء حقيرا ؟ وإن كان الجندى الذى يستشهد هو ذاته فاعل الإثم ؟ وإن كان الشهيد لم يكرس حياته لنصرة الحق ، بل لنصرة الضلال ؟ وإن كان الثائر مجرد جلاد لافائدة منه ؟ إننى كنت أرى أنه لايوجد شىء ، لايوجد شىء قطعا يبرر وجود إمبراطورية الخمير ، ولا حياة أى من الرجال الذين أقاموها ، ولا إيمانهم ، ولا آلهتهم ، ولا طغيان ملوكهم الذين جعلوهم يقيمون أعلى صرح أقامه الإنسان ، ولا الحب الذى كان يكنه لهم أتباعهم ليجبروهم على البناء . وقد أوحى لى خاطرى أنه إذا لم تتح لى فرصة وجودى فى هذا المكان ، فإنه كان - رغما عنى - سيبقى كل شىء بدون تغيير ، وأن المطر كان سوف يقوم

ببث العفن فى التبرير الوحيد لوجود هذا الشعب وهذه الحضارة ، مع ما لازمها من القسوة والحب . كنت جالسا على الشرفة العليا فى أنكور فات ، وسط أروع ما ابتكره روح شعب صقله مرور القرون . إننى كنت أتواءم مع روح هؤلاء الرجال تواؤما عميقا إلى أقصى حد ، إذ كنت أعيد بناء عملهم حجرا بعد حجر ، هكذا كنت أقضى حياتى ، كنت أنقذ عملهم وروحهم ، وكنت أكاد لا أستطيع أن أفهم سبب قيامى بذلك . وما الجدوى من هذه الطقوس ، ومن وجود الخمسة آلاف راقصة مقدسة ؟ ولماذا هذا المعبد الذى أصبح الآن خاليا رغم وجود هذا الراهب البوذى المرتدى رداء أشهب والواقف وحيدا بجوار تمثال بوذا ؟ كنت أتخيل أنه بعد مرور عشرة قرون لن يستطيع الزائر أن يميز بين الأمر الذى أراد أن يعبر عنه شعب سوريافا رمان ، والمهمة التى أنجزتها أنا بدورى . إن ماكنت أعتبره من أروع ماصنع الإنسان لم يكن جديرا ببذل أى مجهود لتحقيقه . لاشك أنك تدرك تماما أن ذلك لم يكن بسبب انهياره مع مرور الأجيال والقرون راجعا إلى فنائه ، أو بسبب فضيحة التفاهة التى أسفر عنها العمل المنجز ، هل تفهم ذلك يادكتور ؟ إننى أفهم ، وقد فهمت فى تلك اللحظة لماذا سارعت كمبوديا بمجرد أن تم تشييد أنكور فات إلى اعتناق البوذية . لم يكن هناك أى شيء

يمكن عمله بعد إقامة معبد أنكور فات ، سوى أن يغلق المرء عينيه وهو جالس على حلقات ثعبان الكوبرا الملتفة على بعضها ، وهو الذى يحميك بعنقه المنتصب مثلما يحمى بوذا ساكيا مونى . أو بالتمثل بهم ، وبإقامة معبد بايون أيضا ، وبتوجيه نظرات تمثال بوذيساتفا الزائفة نحو السماء اثنتين وخمسين مرة ، أى إلى ارتفاع أعلى من ارتفاع معبد أنكور فات ، وذلك لإقامة الصرح الذى يوحى - إلى أقصى حد - بالسلام واليأس ، وهو يتفانى بقدر ما هو يضحى بنفسه ، فيسفر عن آثاره فن اللا معقول فى مجال الهندسة المعمارية لإشهار العدم بالنسبة لكل شىء ، وليثبت بطريقة جنونية قدرة الإنسان الذى يستمر فى التشييد وهو فى آن واحد يردد صارخا - فى جميع أنحاء العالم - أنه لايوجد شىء جدير ببذل أقل مجهود لتحقيقه أو حتى للنظر إليه . . .

إنك لاتفهم ما أقصد . كل ذلك لاأهمية له . إننى أسخر من أنكور ، ولست كالكاتب الفرنسى شاتوبريان واقفا أمام أطلال أثينا متباكيا على الإمبراطوريات وعلى باريس ونينوى وبابل . . . كما لست بالعاشق الواقف بجوار سرير عشيقته المتوفية ، وقد أذهله فناء الجمال وزوال الحب . إن الأمر المهم يختلف عن ذلك . أنكور تمثل المكان الذى تمزق فيه وجدانى . أنكور هى المكان حيث أتحطم . أنكور مثل المرأة : إنها " الأخرى " ،

هى الـــمرأة الأخرى التى تتميز بالعذوبة المتناهية والحنان ، ولكن أنا ، من أنا ؟ هنا أشعــر بالضياع . إن هذه الرغبــة التى يصعب كبتها فى إغلاق العيون ، ورفض الإذعان ، والتقوقع ، والدخول فى ذلك العالم السائل للانـــصـــهار ، والذوبان فى البحر المتناهى العذوبة ، وبــحر الجذور ، حــيث يتمــخض الخير والــشر اللذان لايمكن التمييــز بينهما وهما فى قبضة الإله الكبــير إندرا . الرغبة فى أن أجد الصــمت البدنى الأزلى ، وأن أنسى الــ " أنا " ، أو بالأحرى أن أنســـى كيانى وأن أشيع بهــدوء إلى حيث تبعثر رفاتى ، غــدا . فــيــتــلاشى وجود كــل شىء وكــأنه لم يكن أبدا . وأن لايتواجــد أى شىء ، وإذا تواجد أى شىء ، فليكن ذلك مــجرد مصادفــة لمدة لحظة ، ثم يدخل بعدها عالم النســيان . كان هؤلاء الناس يتحدثون عن الإثارة الابروسيّة الجنسية عند الشرقيين ، وهم لايدركون ما يتــحدثون عنه . هـــل تـــفهم يــــادكــتور وفاتى على الطريـــقــة الكمبوديــة ؟ إن هذا الــبلد يبدو وكــأنه سائل . فالموت فيه يمثل العودة . إن الموت هـــو أن لايـــكون الإنسان قــد تواجــد أبدا . إن الحب فــيه هو المــوت . القوة ســحــر هذه اللمســات ، ويالها من قــوة إغراء . . . . هذا هو موت العــجوز شاك ســموك ، الذى رحل وهو يقول : إنى ذاهب لأعــود أسمع الموســيقى ، وأنا أفــهم جيــدا أنه يعنى تلك الموســيقى التى كــان يسمــعها وهو فى رحــم أمه . . . يادكتــور ، إننى على حــافـــة

الموت . . . كم الساعة الآن ؟ إننى لا أتالم . كيف حال ساقى ؟ إننى لا أراها ، ولا أحس بشىء على الإطلاق . إننى فى طريقى إلى الموت ، لست مستعدا لذلك ، ولم أفكر فى شىء . عندما كنت بالأمس وجها لوجه مع هذه المومياء ، كنت غريبا عن الموت كما كنت غريبا بالنسبة لهذا الميت ، منتؤمنحات ، كيف يمكن للإنسان أن يموت دون أن يعلم ؟ انهض أيها الحى إنك لست بميت ، انهض لتحيا ، إنك لست بميت . كان ذلك وصفا لموت منتؤمنحات ، وهو الموت الذى يتخذ من خلاله فجأة كل إنسان - وقدر كل إنسان - قوام الصوان ونوعا من التقديس النهائى : منتؤمنحات . أنا . أنا هنا . إننى قادم . أنا أيها الرب [1] . . .

إن منتؤمنحات كان يعلم ، كان موته سهلاً وصافيًا ، حيث كان يجد نفسه من جديد متطابقا مع نفسه . . . إن الإله أنوبيس كان ينتظره فى عالم سوف يستمر وجوده فيه ، وسيبقى اسمه منتؤمنحات قائد الحرس ، وقدومه منتظرا ومنادى عليه . ياله من شعور مبهج عندما يفكر الإنسان فى أن هناك من ينتظره ، مثل أجونج نجورا عندما مات . يجب أن يتمكن الإنسان من حب الموت عندما تأتى الساعة ، وأن يتوق إليه حيث لامفر منه . هل يستطيع الإنسان أن يفعل ذلك ؟ هل يمكننى أن أموت

(١) هذه العبارة وردت فى النص الأصلى بالألمانية .

مثلما مات تيور كوردى جديه أجونج نجـورا ؟ ميتته هى الميتة التى كنت أتمناها لنفسى : موته ليس فقط موتا مـقبولا وموافقا عليه ، بل هو موت تم التـــأمل فيه وتم اختياره .

إن هذا الأمـيـر الكهل الذى كـان يحضـر ليـتـرجم لرولف المخطوطات المكتوبة بالسنسكريـتية - باللغة الجاويـة القديمة - كان أميـرا حسب العرف المعـهود فى جزيرة بالى ، أى بطريقـة تتسم بالرقـة والزهد . وعلى الرغم من أنه كان مـزودا بالحق الإلهى ، كان يعتـبر ذلك شيئـا طبيعيا ، مـثلما نرى نحن طبيـعيا أن نولد ذكورا أو إناثا ، وكان يـتصرف بمنتهى البسـاطة . . . كان يرتدى أثواب السارونج محلاة بالزخارف الذهبية التى كان يرسمها ويعيد رسـمهـا عدد لايحـصى من النسـاء والفـــتيات اللاتى كـانت ضحكاتهن تسمع فى الفناء الثالث فى قصره واللاتى كن جميعهن بناته أو حفيـداته . أما فيما يخص الزوجـات ، فلم يكن يحتفظ سوى باثنتين أو ثلاث ، تزوج منـــهن فـــى وقت لاحق ، وقد تجاوزن سن الشيخوخة . كان يلف عمامته على الطريقة القديمة ، وكـان يتجـول فى كل مكان بابتســـامتـه التى لاتوصف والتى كـانت تكشف عن غـياب أسـنانه وعن شـفاه تكاد تكـون غيـر موجـودة . كانت صـداقته لايـدا باجوس مادية ناديـرا تعود إلى عشرات السنين ، بحيث لـم يكن هناك أحد يتـــذكر أنـــه رأى أحدهما دون الآخر . لقد أتيا معًا من عـالم لايتـــذكره أحـــد

وكانا يمثلان معا نوعا من الذاكرة لايمكن سبر أغوارها ، كانا يعرفان كل القصص ، أبواهما عرفا الأبطال . إن جد أجونج قد خدم الراجا توالنجا . أما ناديرا فقد سمع جده يتحدث عن جاراوية وكأنه رجل قد رآه هو ، أو رآه أبوه نفسه . كانت ذاكرتهما تمتد لتحوى جميع المخطوطات السنسكريتية القديمة التى كانا قد حفظاها عن ظهر قلب ، وكانا يقومان بتلاوتها وهما يرتلان الفيدا والفيدنجا والذانورفيدا . ولم يتذكر أحد أنه قد مر أى يوم من الأيام دون أن يراهما معا على درجات سلم قصر أجونج . كان أجونج يجلس على درجة أسفل الدرجة التى كان يجلس عليها ايدا باجوس مادية ناديرا ؛ لأنه لايجوز لأمير أن يجلس بجوار كاهن برهمى ، حتى إن كان فقيرا . وحتى بعد مرور ستين عاما على مواظبتهما على زيارة يومية ، كانا يتبادلان خلالها تلاوة المخطوطات المقدسة التى لم يعد أى منهما يقوى على قراءتها ، كانا يتحدثان معا عن الحياة ، وعن الموت ، وعن الآلهة . إن الموت هناك شىء بسيط ، بل إنه سر عظيم يمكن أن يقال عنه أشياء بسيطة . وكان يقال عنهما فى القرية - بغير دهشة - إن كلا من العجوزين قد أقسم للآخر أنه بعد وفاة كل منهما ، وأيا ماسيكون الشكل الذى سوف يفرض عليهما أن يتجسدا به فى حياتهما التالية ، فهما يتعهدان بأن يجتمعا ليعيشا معا تلك الحياة . كان يقال ذلك بتعجب من روعة هذه المودة ، ولكن لم يشك أحد فى إمكانية ذلك .

عندما حضرت إلى بالى يادكتور ، كان مادية ناديرا مريضا ، ولم يكن فى استطاعــته أن ينهض عن هذه الحصيــرة المصنوعة من الغاب المجدول والتى تستخدم هناك كـسرير للأغنياء والفقراء على السواء . كـان الأميـر يذهب بنفسه لزيارة صـديقه ، يقـوده أحد أحفاده ، وكـان يمكث هناك طوال اليوم تقريبا . لم يعـد يستمع أحد إلــى حديثـهما كـما كـانت العادة فـيمـا مضى ، ولم يـعد باستطاعة أحد أن يعلم ماذا كان يدور بينهما من حديث فى الآونة الأخيـرة . ربما كانا يكتفـيان بالصمـت بعد ذلك ، مثلمـا كانت عيونهـما الضريرة تكتفى بالظلام . لم أر أبـدا ايدا باجوس مادية ناديرا : لقد مات بعد شهر أو ستة أسابيع من وصولى إلى بالى . ولم يعرف ذلك وقتها ، حيث كـانت تقيم إحدى العائلات حفل عرس ، ورؤى أنه من اللائق انتظار نهاية الاحتفالات لإذاعة خبر وفاة البـرهمى العجوز . وبدأ أجـونج منذ ذلك الحين يتردد على رولف لينشد له القصائد ويترجمها له ، كما لو كان قد أدرك فجأة أن ذاكرته - وهى حصيلة كتـابة قرون عديدة من المعلومات المتوارثة - يجب تدوين مابها . وبعد مـــرور أشـهر من هذا الحدث - وكما هى العادة المتبعة فى بالى - تـــم إحراق جثمان ناديرا . وفى ليلة السـهـر الجنـائزية كـــان مـنزل المتـوفـى يبـدو وكـأنه ممـــلوء بالزهــور . إن الفناء الذى كان مزدحما بخـــمسة أو ســتة مبان شُيــدت من الـــغاب والســـعف - والـــتى تعتبر بمثـــابة

مساكن لأهل جزيرة بالى - كان مليئا بموائد وضعت عليها التقدمات التى أتى بها المعزون ، وقد تكاثرت عليها أشياء مختلفة . فلم يكن هناك جزء من الحائط غير مغطى بالأزهار ، والجريد المجدول ، وبالرايات الصغيرة ،وبعقود الأزهار ، وبالأقمشة المزخرفة التى كانت تمتص الضوضاء . وكانت مصابيح الزيت والبترول تلقى ضوءا خفيفا ، وكان الظلام أشبه بسقف فوق الرؤوس . فانكمشت المسافات ، وبدا الفضاء وكأنه مغطى باللبد . والصوت الوحيد الذى كان يخترق هذا الهدوء ، كان صوت أجونج الذى كان يتلو مرة أخرى النصوص السنسكريتية أو الجاوية القديمة ، فى وسط جمع من الرجال أمام الفراش الجنائزى الضخم الذى وضعت فى أعلاه الحصيرة التى كانت تحوى جثمان ايدا باجوس مادية نادیرا . واستأنف أجونج إنشاد ترانيمه الدينية طوال الليل ، كما كان يفعل ذلك بمنزل رولف . وبات الزمن وكأنه قد تلاشى . وكان الليل لاينقضى ، وكنا نشعر بوجوده جامدا لا حراك فيه مثل الفضاء المحيط بنا ، حيث كانت الأبعاد تبدو مغايرة ، وحيث حطمت الأصوات والأضواء الفضاء وأفنته . وانصرف أجونج عند الفجر . وتابعت مراسم إحراق الجثمان طوال اليوم ، بحيث لم أعلم بما حدث فى القصر إلا فى المساء . عاد أجونج إلى القصر بعد أن أمضى الليل فى التلاوة والإنشاد ، وقال إنه مجهد ، ثم استلقى على

فراشه المصنوع من الغاب ، كمـا أمر حريمه بالانسحاب وأعلن أنه في حاجة إلى النوم ، ولكنه طلب إحضـار أصغر أولاد أحفاده . ويمثل أصـغر الأطفـال في جزيرة بـالي وضع الابن البكر لدينا ، وأكثر من ذلك بكثـير أيضا . فهو يعتبـر الشخص الذى ينقل إليه كل شيء : الميراث ، وفـضيلة العـائلة ، وسرها . إن الموت في تلك الجزيرة يتصل بالميلاد ، ذلك لأن آخر المواليد هو الأقرب من حيث الزمن من الذى سـوف تبعث فيه من جـديد روح المتوفى ، فـهـو يعـتـبـر أقـرب أخ له . ولذلـك طلب أجـونج من الابن الأصـــغر من أولاد أحفـاده أن يجلس بجواره وأن يمسك بيده ، ولم يقل له شـيئـا آخر سـوى أن يمكث بجانبـه ويدفئ يده ، ثم أغمض عينيه ولم يتـحرك قط . وجلس الطفل بدون أى حركة ، واضعا يده على يـــد العجوز وهو ينظر إليه . وبعد مضى ساعة من الزمن ، ثم ساعـتين ، لم يتحرك الأمـير العجوز ، كـما لم يتحرك أيضًا الطفل . ولـــم يراود الموت ذهنه . فلم يلاحظ أن يد العـجوز قـد بدأت تبرد ، كـيف يستطيع المرء أن يحـدد وقت وفاته يادكتـور ؟ لقد مات أجونج في اللـــحظة ذاتـــها التى تم فيها إشعال المحرقة التـــى حررت روح مادية نـــاديرا ، الذى كان أقـسم بأنه سوف يلحق به . كيف يمكن للـــمرء أن يموت في الدقيقة التى اختـارها ليفى بوعده ؟ آه ! إننـــى أرجـــوك

يا ديافواروس [1] ألا تحدثنى عن السموم ، ولاتأت لتحدثنى عن الأسرار الشرقية التى يمكن بواسطتها إحداث موت الجَسد . . .

أليس لديك شيء تصرح لى بـه ؟ أقول لك إننى فى طريقى إلى الموت ، ولست مستعدا لذلك ، ولم أعـد شيئا . الوقت غيرَ متاح لى ، لم يتبق وقت بـعد ذلك ، هل سوف يقال لى الآن أن الوقت لم يحن بـعد ؟ الـوقـت مـبكر جـدا يادكـتـور ، هــل تسمعنى ؟ مـبكر جدا ، لقد كنت قد فـارقت الحياة . . . ولكننى أعـلم جيـدا أننى سقطت على درج السـلم وتم إنقاذى . آه ! يا أبى ، آه ! يا أمى ، لماذا تخليتما عنى على العتبة ؟

استدار الطبيب نحو مدير بعثة الآثار .

- لقد مات دون أن ينطق بكلمة واحدة .

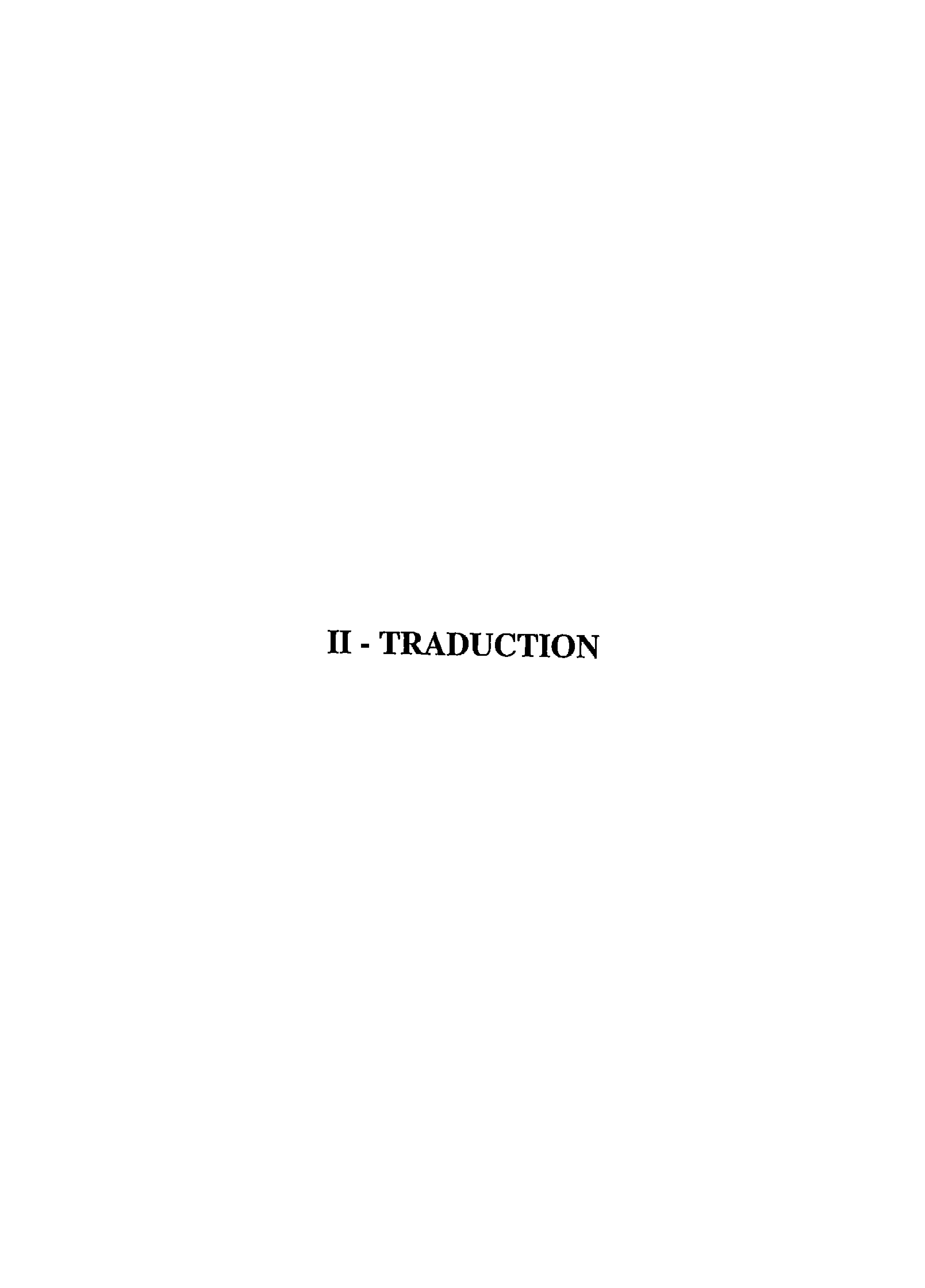
- هل كان فاقد الوعى ؟

- كلا ، لم يكن فـاقد الوعى حتى اللحظات الأخـيرة على الأقل ، عندمـا وصلت به السـيـارة الچـيب كـان الجـزء الخلفى لحنجـرته قـد أصـابه الشلل . هذا شيء عـادى . إن الموت يأتى نتيجة للاسفكسيا . أنا أتصور - على عكس ما قاله السائق - أن الموت كان نتـيجـة للدغة ثعـبان الناجا نـاجا لا ثعبـان الكــوبرا الملكى . وانظر . . . إنه لايزال مـحتـفظا فى يده بهـذا الـــناى

(١) اسم طبيب غبى وتافه له دور فى تمثيلية للشاعر الفرنسى موليير .

الصغير . . إنه لم يتركه . هل كان يعلم أن الموت سوف يأتى من رئتيه رويدا رويدا نتيجة للشلل ؟ كـما لو كان الإمساك بهذا الناى . . . ولم ينطق بكلمة واحدة .

- ألم يقل شيئا عما كان ينوى أن يفعله لإعادة العمل فى الجدار الشرقى ؟ لم يترك شيئا . يجب أن يعاد عمل كل شىء .



II - TRADUCTION



I - ETUDE THEMATIQUE ET LINGUISTIQUE

[1] L' ARCHEOLOGUE

Plusieurs raisons m'ont amenée à choisir, pour une traduction en arabe, le roman de ***Philippe Beaussant, l'Archéologue.*** Certaines tiennent au texte lui-même, d'autres aux problèmes de traduction qu'il pose.

Indépendamment de son intérêt intrinsèque. de sa beauté, de son caractère particulièrement émouvant, le texte de **philippe Beaussan** t me semble susceptible de retenir tout spécialement l'attention du public arabe. D'une part, il met en oeuvre une technique romanesque très représentative des recherches du roman moderne: l'utilisation fréquente - et très subtile en même temps - des " retours en arrière" montre des possibilités de rapprochement entre cinéma et raman qui devraient passionner les lecteurs de notre pays. D'autre part, un de ses thèmes essentiels est une confrontation entre l'Occident (representé par l'art roman) et l'Orient (représenté par des vestiges égyptiens et cambodgiens).

Cette confrontation, située d'abord au niveau esthétique, se développe ensuite **en une comparaison, puis en une synthèse** de deux représentations de la vie et de la mort.

En ce qui concerne les problèmes de traduction, le texte de **Beaussant** constitue un défi passionnant. Ainsi, du fait même de ses retours en arrière, il représente un jeu perpétuel avec le temps : il est fort intéressant de voir comment ce jeu peut être rendu dans une langue comme l'arabe, dont les structures temporelles

sont bien différentes de celles du français. De plus la musicalité du style de **Beaussant** est un élément constitutif du roman lui-même, largement fondé sur la coexistence, puis la mise en harmonie de deux musiques (mozart et la flûte cambodgienne). On ne pouvait traduire le roman sans tenter de faire entendre, à travers l'arabe, la musicalité du texte français. Enfin, ***l'Archéologue***pose au traducteur des problèmes d'interprétation particuliérement délicats. Non pas qu' il soit hermétique, mais plutôt parce que la plupart des phrases et des enchaînements de phrases laissu'ent ouvertes de multiples possibilités d'interprétation - et cela de façon volontaire. Il s'agissait done de repérer ces diverses lectures et de trouver des équivalents arabes qui contiennent les mêmes potentialités. Alors que la traduction demande souvent de dèsambiguîser, il s'agissait dans ce cas précis, de respecter l'ambiguîtè, sans l'accroître et sans la diminuer. chercher à approcher de ce but est un exercice tout à fait prenant, même si l'on sait à l'avance qu'on ne pourra pas l'atteindre vraiment.

Avant d'entrer dans le détail des problèmes de traduction, il nous faut, afin de situer ces problèmes par rapport à la visée générale du texte de **Beaussant** , présenter bri¡èvement le roman.

D 'abord, indiquer son sujet, qui est apparemment très simple. Un archéoloçue frangais travaillant dans le dèsert égyptien est mordu par un serpent. Le texte du roman consiste en une sorte de monologue que l'archéologue adresse au mèdecin venu le soigner

(il devine d'ailleurs qu'il est arrivé trop tard pour le sauver). On apprend à la dernière page que ce monloogue est, en fait, purement mental et que-l'archéologue, paralysé par la morsure, est mort sans avoir prononcé un mot.

D'autre part, il nous faut dégager les thèmes principaux quisurgissent et s'entremêlent à travers le monologue de l' archéologue. cette présentation thematique ne nous semble pas seulement nécessaire pour que notre lecteur " se retrouve " dans les différents passages que nous citerons et dont nous montrerons les problèmes qu'ils posent au traducteur. Elle est nécessaire surtout parce que la thématique et la stylistique de Beaussant sont totalement dèpendantes l'une de l'autre. Il n'est pas possible de séparer dans le cas de ce roman, les problèmes de contenu (qui, en tant que tels, ne concerneraient pas le traducteur) et les problèmes de forme (qui, seuls, seraient l'objet du travail de raduction). La fameuse formule "le fond c'est la forme" est ici vérifiée à chaque ligne : ce que l'auteur cherche à dire ne fait qu'un avec la façon dont il le dit. "Organisation même de la phrase de Beaussant ne fait qu'un avec le contenu de cette phrase. On devine les difficultés qui en résultent pour le traducteur condamné, de par sa situation, à l'interface de deux langues, à modifier cette organisation. Il ne s'agit pas seulement pour lui de trouver une autre organisation qui véhicule les mêmes informations, les mêmes émotions, les mêmes jugements. Il s'agit de trouver une organisation de la phrase arabe qui, ***en tant qu organisation,*** soit chargèe du même pouvoir expressif que

l'roganisation, nécessairement différente, de la phrase française.

Nous nous permettons encore un instant d'insister sur cette idée : nous voudrions qu'on la prenne au sérieux et non pas comme une simple formule de prudence. Dans un ouvrage récent sur la métaphore, M.Johnson et G. Lakoff [1] ont montré que la vision occidentale du langage est largement fondée sur la métaphore du "véhicule": le locuteur conçoit dans son esprit un certain message, puis cherche une phrase dont ce message soit le " contenu". La phrase est ainsi censée " transporter ", " véhiculer " ce contenu vers l' interlocuteur, qui n' a plus qu'à défaire l'emballage pour découvrir le message que le locuteur y avait placé. En fait, tout langage poétique dément immédiatement cette métaphore (c'est, nous semble - t-il,le sens de la formule citée plus haut). Mais il est vrai aussi pour bien des textes, notamment pour le roman de **Beaussant** , que l 'on ne classe pas habituellement dans le genre "poésie". La thématique y est moins " vehiculée " que rendue sensible," "manifestée" par la structure linguistique. C'est cela que nous avons essayé de faire apparaître dans notre traduction, et c 'est la raison pour laquelle nous ne pouvons pas présenter notre travail de traducteur, sans indiquer d'abord quelle est, selon nous, la thématique profonde du texte

le thème général du roman se révèle progressivement

(1) ***Metaphors we live by***. Univ. of Chicago. Press, 1980. Traduction française, Minuit 1985 : ***Les Métaphores dans la vie qotidienne***.

au cours de l'oeuvre. Plus exactement, le monologue de l'archéologue correspond à une prise de conscience progressive d'une "vérité", à aucun moment explicitement exprimée, et qui transparaît seulement à travers les souvenirs siccessivement évoqués. L'ordre dans lequel ils sont évoqués (en termes de narratologie, " l' ordre de la narration") n'a en effet aucun rapport avec l'ordre chronologique ("l ordre des événements") (1). It est fondé, nous semble - t - il, sur la force croissante avec laquelils manifestentle même théme, rendu d'abord à peine sensible, puis de plus en plus évident. Quelquefois, d'ailleurs, c'est le même événement qui resurgit à plusieurs reprises, soit matériellement modifié (lorsque reviennent à la mémoire des détails essentiels qui avaient été oubliés), soit modifié seulement en ce qui concerne la tonalité du récit.

(1) Nous nous servons ici de la terminologie de Genette dans ***Figure III.*** Mais nous signalons. en passant, que son application au roman de Beaussant pose un problème théorique important. Ce que nous venons de dire sur la divergence entre l 'ordre de la narration et l'ordre des événements, suppose que l 'on considére l ' archéologue comme le narrateur "intradiégétique " et que les " événements " narrés soient constitués par sa vie passée. Mais si l'on prend comme trame événementielle le surgissement des souvenirs á sa conscience pendant son agonie, en posant alors un narrateur "extradiégétique", l'ordre des événements et l' ordre de la narration devront être considérés comme parallèles. Ce qui montre les relations entre les pro blèmes relatifs´á la " voix " (qui parle ?) et ceux relatifs à l'" ordre " (succession diègètique et succession événementielle).

On voit déjà deux problèmes généraux que pose au traducteur la construction du roman, telle que nous venons de la caractériser. L'un concerne la chronologie. Le récit de Beaussant, même s'il ne suit pas, nous l 'avons dit, la chronologie, permet de reconstituer l'ordre chronologique des événements racontés - de sort que l 'on pourrait, après l'avoir lu, établir une sorte de biographie de l'archéologue. Nous devions donc, dans la traduction, donner aussi au lecteur arabe la possibilité de s'orienter dans le temps du personnage. Mais il fallait, par ailleurs, éviter de donner aux indications temporelles, un rôle de connecteur entre les différents fragments. Car ce n,est pas un fil chronologique-qu 'il soit linéaire ou comporte des retours en arrière-qui assure la continuité du texte, mais l 'approfondissement progressif d'un théme central. Il fallait donc que les rapports temporels, entre les événements, fussent à la fois manifestés par la traduction et n'y apparussent cependant pas comme des charnières ou des transitions textuelles. La chérence temporelle du roman devait donc être rendue, mais en prenant gardeàce qu'elle n'apparaisse pas comme le lien même de la narration.

Le deuxième problème concerne ce que nous venons d'appeler " tonalité ". Si les différents épisodes racontés mettent en évidence le même thème, et si l'ordre de la narration est une progression dans la découverte de ce thème, cela ne tient pas à la nature des événements, mais au " ton " qui leur est donné dans le récit. La structure interne des phrases et les connotations des mots employés révèlent le

caractère significatif de l'événement, tel qu'il apparait dans le délire de l'archéologue. les analystes du rêve ont souvent noté que la significativité d'une image, dans un rêve, est moins révélée par son contenu que par la charge affective qui lui est attachée (une image en elle même banale, mais " chargée d'affect " pouvait être beaucoup plus révélatrice qu 'une image intellectuellement plus suprenante mais, moinslourde d.émotion). C'est exactement ce qui se passe dans le texte de **Beaussant** : la progressive révélation du thème central est marquée par une émotion croissante du locuteur, elle même perceptible à travers l'ordre (ou le désordre) des phrases et les résonnances affectives des mots. Rendre cela dans une langue de structure différente est une entreprise impossible à réussir pleinement. Mais il fallait tenter de le faire. Sinon, nous laissions échapper, non seulement la beauté du texte, mais son sens même, son thème profond (comme l'analyste qui négligerait la charge affective des images oniriques).

Ce qui nous a le plus frappée, en lisant *l'Archéologue*, et que nous avons essayé de rendre sensible dans notre traduction, C'est le retour obsessionnel d'un thème unique, celui de l'ordre perdu et de son impossible reconquête. Son apparition est marquée par une certaine rupture dans le rythme du style (par exemple par la succession d' une phrase très longue - ou s'entremêlent, comme dans une phrase de Proust, une multitude de notations, appartenant à des ordres sensoriels *differents* - et d'une ou de plusieurs phrases très courtes, souvent purement nominales et dont la construction est presque à la limite

de la correction grammaticale). Et C'est le renforcement de ces ruptures rythmiques qui fait appa- raitre, au fur et à mesure que l'on avance dans le texte, l'approfondissement désespéré de ce thème.

Sur le point de mourir, l'archéologue perçoit que tout ce qui a été marquant dans sa vie - plus exactement tout ce qui apparàit sa mémoire comme marqué d"importance - ce sont des moments où il a cru se trouver en accord avec un certain ordre des choses, et' ou cet accord s'est révélé illusoire, parce qu'il s'agissait d'un ordre qui n'était pas le sien, d'un ordre auquel il n'avait pas droit. Ainsi, pour sa pratique d'archéologue qui consistait à reconstruire, à partir de pierres découvertes dans la forêt cambodgienne ou dans le sable égyptien, les temples édifiés par des civilisations disparues. En ajustant ces pierres pour reconstituer des colonnes ou des voûtes , il avait l'illusion de restaurer une organisation ancienne : en fait, il ne réussissait qu'a bouleverser l'ordre de la forêt ou du désert. La restauration espérée n'était qu'une nouvelle destruction, un nouveau péché. péché dont la punition était la mort : avant qu'il ne soit lui même, en Nubie, mordu par un cobra, son adjoint cambodgien avait déjà été victime d'un serpent à Angkor (c'est cette présence du serpent, avec tout ce qui lui est associé dans la culture chrétienne, qui nous a permis d'employer le mot " péché " bien que ce mot n'apparaisse pas explicitement dans le texte).

Entremêlé à ces souvenirs professionnels, resurgit aussi un souvenir de classe, dont on s'aperçoit, par la simple juxtaposition des deux motifs, qu'il manifeste la

même obsession. Ayant à composer une rédaction dont le thème était la désobéissance, il avait imaginé qu'il était allé, malgré l'interdiction de ses parents, ramasser des champignons dans un champ réputé pour être fréquenté par des vipères. Et là encore la mort avait puni le désordre : s'étant trîné jusqu'à la maison familiale, il était mort sous les yeux de ses parents impuissants à le guérir. Ce qui lui avait permis de conclure la rédaction par une formule dont l'humour (un " humour narratif" fondé sur la transgression des lois du récit) avait eu un grand succès scolairè : après avoir décrit ses parents accourant pour le soigner. il concluait "trop tard, j'étais déjà mort".

En fait, l'entremêlement des souvenirs est encore plus cmpliquè (et il nous semble utile d'insister sur cet épisode pour faire apparaire la technique de Beaussant, et la façon dont il entrecroise les différents niveaux du récit). Car l'archéologue, après avoir revécuen mémoire l'épisode de la rédaction, tel que nous venons de le rapporter, se souvient que les choses s'étaient, en fait, passées autrement. Dans la rédaction écrite par l'enfant les parents arrivaient à temps pour soigner et guérir : la désobéissance, la rupture de l'ordre, étaient pardonnées et effacées. C'était la maitresse de classe qui avait, pour "faire littéraire ", réécrit les dernières lignes de la rédaction et inventé notamment la formule finale. Ainsi donc, la roublardise des adultes avait fait périr l'enfant, et avait supprimé, par un souci mensonger de bien dire, ce rétablissement de l'iordre qui était encore possible dans le monde enfantin. ils lui avaient substitué,

comme plus belle, une fin où le désordre est rendu définitif par sa punition, la même fin que l'archéologue connait dans le désert égyptien.

Le même thème apparait encore à travers le motif des flûtes, qui revient sans cesse au cours du roman. L'archéologue veut faire don au médecin auquel il croit parler de toute une collection de flûtes qu'il a ramenées des différents pays où il a travaillé. Les flûtes évoquent d'abord les lieux où il a vécu, puis les flûtistes qui les lui ont offertes, et enfin les efforts qu'il a faits pour apprendre à jouer de ces flûtes. Efforts dont il se rappelle, au moment de mourir, qu'ils étaient risibles, car la seule musique réussie est celle qui vient, comme le lui avait dit (sans qu'il le comprenne à l'époque) un musicien cambodgien, des dieux, des esprits, des ancêtres : un musicien ne peut pas être étranger à la musique qu'il joue. De sorte que ces flûtes extitiques font surgir le souvenir encore plus ancien d'une vieille flûte baroque dont jouait, en France, la femme qu' il aimait et qu'il a perdue. C'est de cette seule flûte qu'il aurait pu jouer, et tous les efforts qu 'il a faits depuis, avec d'autres flûtes, lui apparaissent maintenant comme une tentative dérisoire pour retrouver un passé dont il a été chassè. D'où ces "on ne peut pas", " Docteur, on ne peut pas " qui rythment mystérieusement son discours et qui ne semblent se reférer à rien de précis : il s'agit en fait d'une impossibilité fondamentale à retrouver son propre passé (à se retrouver lui-même) hors du lieu et de la tradition oú ce passé a un sens. C'est ce thème du déracinement irréparable - et de sa punition - qui donne une cohésion aux bribes de souvenirs dont la

succession (pour mieux dire,l' enchevê trement) constitue le roman. Et c'est l'approfondissé ment désespéré de ce thème qui constitue le principe de progression du texte.

On retrouva cette putinion sous sa forme la plus brutale, dans les réflexions sur la mort qui jalonnent le roman, présentées à travers des souvenirs ces réflexions concourent toutes à l'idée - ou plutôt à expliciter le sentiment - que la mort peut surgir de deux façons opposés. Elle s'inscrit dans l'ordre des choses, elle est une sorte d'insertion ou de réinsertion paisible. Ainsi. Ainsi, la mort du fonctionnaire égyptien dont l'archéologue a découvert la momie, entourée de tous les objets familiers qui lui permettront une nouvelle vie (comme l'atteste l'inscription" lève-toi, vivant, tu n'es pas mort"). Ainsi, la mort d'un artisan cambodgien, au millieu des enfants auxquels il a appris la musique, et qui jouent pour lui cette musique, " venue des esprits" qu' il leur a transmise. Ainsi encore, la fin de ce prince indonésien qui a décidé de se laisser mourir le jour des obsèques de son plus vieil ami. A l'opposé, il y a des morts inacceptables, celle du cambodgien qui a aidé l'archéologue dans ses fouilles et qui, mordu par un serpent, hurlait pendant qu'on essayait de le soigner. Et, bien sûr, celle de l'achéologue lui même : elle interrompt un travail de restauration qu'il a entrepris, mais pour lequel il n'a laissé aucune instruction et qui devra être entièrement recommencé, ou qui auttrement disparatraît avec lui). D'où ces paroles du chef de la mission archéologique, par lesquelles le roman s'achève : "Et il n'a rien dit de ce qu' il pro-

ait pour la reprise du mur est ? Il n'a rien laissé. Il ıt tout refaire").

Ces mort's qui ne participent à aucun ordre, qui ne ıscrivent dans aucune continuité, sont la punition pour ainsi dire la répétition de la faute essentielle, la désobéissance fondamentale qui consiste à uloir construire une vie en dehors du milieu qui nne sens à cette vie.

[II]

Nous avons essayé, dans notre travail de traduction, de nous maintenir autant que possible dans les limites du texte original et d'en exprimer toutes les subtilités , tout en nous pliant aux exigences de la langue arabe. Mais nous avons rencontré des problémes généraux : celui, par exemple, de respecter les ambiguïtés voulues par l'auteur et ne pas essayer de désambiguïser le texte, de jouer le rôle d'écrivain traducteur. " il existe un risque de lire dans les mots de l'auteur des significaitions qu 'il n'avait jamais pensé y mettre, significations nées au contraire de l'esprit du lecteur ou du traducteur (....) [1] cependant, dans certains cas, on s'est trouvé forcé d'opter pour une interprétation donnée, dans la mesure où la traduction de l'ambiguïté aurait produit un non sens dans la langue d'arrivèe. Ainsi, nous retenons en matière d'équivoque ce qui suit : dans son monologue intérieur, l'archéologue demande au docteur d'émettre son verdict sur les chances qu 'il a de vivre et poursuit (p.8) " Combien de temps ? Douze heures ? Moins ? Naturellement vous ne voulez pas le dire. Tout à l 'heure, n'est-ce pas ? dans votre jeep vous avez décidé de vous taire ". le lecteur françaisa le droit de se poser la question de savoir comment comprendre le " tout á l 'heure n'est-ce pas ? " ; est-ce l 'issue fatale qui aura lieu tout à l'heure ? ou bien faut-il comprendre : tout à l 'heure dans votre jeep, vous avez décidé de vous taire sur ce chapitre ?

(1) G. Mounin, *Linguistique et traduction*, Dessart, Margada, 1976,P.14

Nous avons opté dans notre traduction pour la deuxième hypothèse.

Autre exemple qui prête à équivoque, à la p . 29 : " plus tard, j,ai trouvé ce petit relief de Nefertari si tendre ". Nous l'avons traduit de la façon suivante " (...) Ce petit relief sur lequel a été reproduit avec tendresse le visage typique de la Reine Nefertari". Est-ce le relief ou ést-ce Nefertari qui était " si tendre " ?

L'exemple qui suit (p.43) est à cheval entre l'ambiguité et l'explicitation. " Il respirait le monde avec une seule gamme ". Nous avons été amenée à interpréter ici ce que l'auteur semble vouloir communiquer au lecteur : " Et chacun d'eux exprimait ses sentiments dans les limites d'une seule gamme ".

Nous avons eu recours, en revanche, très souvent à l'explicitation : soit en expliquant un terme : ainsi à la page 40 le narrateur à parlé d'un *tumulus* au milieu duquel il avait trouvé une des flûtes qui l'intéressait. Le tumulus étant un monument primitif particulier, inconnu dans le monde arabe, nous avons cru bon d'ajouter après tumulus l'explication de ce terme : " une construction en pierre de forme conique élevée au dessus d'une sépulture ". Soit en ajoutant certains mots ou segments pour rendre le message plus clair tout en restant fidèle à la pensée de l'auteur.

P.15 " (...) il manque quatre blocs ". Nous avons continué par : pour compléter la frise.

p.23 " Mon Cambodge ". une traduction litté rale ne rendrait pas le sens ; nous avons dû interpréter : le Cambodge que j'ai aimé.

p.122 " Et s'il avait triché ? " Nous avons rendu ce passage par : *Et s'il avait eu recours à la tricherie pour sauver son fils. De cette façon, le texte est plus compréhensible pour le lecteur arabe.*

Dans la mesure où il s'agit de délire , souvent les phrases en français sont nébuleuses ou incomplètes. Nous avons pris soin pour la clarté du texte ou plutôt pour que le texte ne soit pas tout à fait inintelligible, de clarifier ou de compléter certaines phrases . C'est le cas à la p.12 de :

p.12 " vous ne savez toujours pas, n'est-ce pas ?

on a ajouté en arabe : **Combien de temps il me reste à vivre.**

Même phênoméne à la P . 68 :

p.68 " on ne peut pas , comprenez-vous ? "

Nous avons ajouté d'après notre compréhension du texte :

improviser des airs (voir sur ce point, la section III, 3).

or le texte est jalonné de ce genre de phrases incomplètes.

Quand ces phrases, traduites en arabe, ne rendaient pas le texte trop hermétique, on a respecté ce style du " délire ".

Dans certains passages l'explicitation d'une phrase ne consistait pas à ajouter un mot ou un segment, mais à

ıstituer " des messages entiers de l'autre langue. :te traduction est une forme de discours indirect : raducteur recode et retransmet un message reçu ıne autre source. (...) la traduction implique ıx messages équivalents dans deux codes différ-s " (1) .Ainsi, á la p . 89, le narrateur décrit le ɹvements esquissés par Ni Suwarti en dansant en termes " Il n'y avait rien á déchiffrer ". Il fallait, en be, être plus explicite et nous ne pensons pas ıir trahi la pensée de l'auteur en rendant cette ase par : Ni Suwarti se distinguait par la transpar-e. Elle ne comportait aucun mystère à éclaircir.

.e problème traduction peut, ici, être exprimé en nes d'analyse sémantique. L'expression " il y a lque chose à déchiffrer " amalgame deux propo-ɔns :

1) Il y a un sens.

2) Ce sens est caché.

ia négation " il n'y a rien àdéchiffrer " peut donc er soit sur (1), soit sur (2). Il nous a semblé utile, s notre traduction, de marquer que la négation e, dans le texte de **Beaussant**, sur le deuxième nent. D' où l'addition que nous avons opérée.

ıans certains cas, nous n'avons pas pu conserver ırabe l'emploi conscient, de la part du narrateur, ı terme inapproprié. Ainsi à la p .8 nous pouvons : " Alors, docteur, votre verdict ? " . Nous l ' avons uit par diagnostic. Dans d'autres cas, comme à la

. Jakobson, ***Essais de linguistique générale*** ,, Ed. de Mi-ıuite, Paris, 1963, p. 80.

p .96, " Et je ne peux pas savoir si cela tenait à la forme de cet espace obscur et lumineux ou si cela me fut révélé, à ma première visite, par la présence de cette belle fille au millieu, qui me parlait, et si cette découverte amoureuse que j'étais en train de faire, cette respiration nouvelle et plus profonde qui s'élaborait en moi, me faisaient découvrir, à l'intérieur de ces murs, formée par eux, fermée par eux, dessinée, contenue par eux, une sorte d'âme : celle de ce lieu, ou celle de cette femme, je ne savais pas encore. " la phrase s'ètend sur une dizaine de lignes sans spécifier l'endroit visité, qualifié seulement d' " espace obscur ". Il fallait piloter le lecteur arabe et préciser qu 'il s'agit toujours de la chapelle.

Enfin, un dernier exemple dont la traduction nous a donné du mal. A la p.80, nous lisons : Iln'y n'y a de musique possible que lorsque les choses peuvent prendre leur contour, leur netteté. L' oeil assure l "espace, il mesure la distance, il sépare. ***Halte - là*** *objet, tu n'es pas moi.* " C'est uniquement le recours au contexte qui nous apermis de traduire cet énoncé qui, de prime abord, pourrait paraitre comme un non -sens. Nous l'avons fait suivre d'un énoncé qui en explicite un peu plus le sens : la vision dresse un écran entre nous et ce que nous percevons.

Dans la mesure où " la traduction a pour but de faire comprendre à un destinataire de la langue cible,

les idées d'un émetteur de la langue cible " dans la mesure également où " il s'agit de rendre un message accessible à quelqu'un qui ne peut pas l'appréhender directement " [1], nous avons estimé nécessaire detraduire les citations latines et allemandes rencontrées dons le roman N,oublions. pas que le nombre de lecteurs arabes ayant notion de ces deux langues est insignifiant. Certes le *Suspiciat* ... pour les lecteurs ayant souvent participé à des messes célébrées en latin est très facile à comprendre ou, en tout cas, donne un sentiment de familiarité. D'autr part *Ich, O Herr,* ne comporte aucune difficulté de compréhension pour le lecteur français ayant quelques notions d'allemand. Mais on ne saurait s'attendre à trouver beaucoup de lecteurs arabes pouvant saisir le sens de ces citations reproduites dans leur langue originale. Si nous avions maintenu ces citations dans leur langu d'origine, nous aurions donc créé, pour la majorité des lecteurs arabes, à la fois une incompréhension et un sentiment d'étrangeté qui ne sont pas donnés au lecteur français. Sous prétexte de fidélité, nous aurions, en fait, produit un effet tout à fait différent de celui voulu par l'auteur.

Ii en est de même pour des " burettes glacées par le froid " . Le mot burette avait besoin d'être explicité en arabe et nous l'avons traduit par : les deux petites carafes contenant le vin et l'eau.

(1) " Le traducteur récepteuret destinataire du message " de Lederer in *Etude Linguistique appliquée No. 24. Dec. 1976 . D . 72.*

Nous enchaînons ici avec un problème de taille, auquel nous nous sommes heurtée. Il s'agit des références continuelles à des civilisations qui nous sont étrangères. Beaussant a sans doute voulu cet effet " d'étrangété " que créent les références continuelles au Cambodge, á i'Indonésie ..., á la façon de penser, vivre, aimer et mourir de leur population. pour respecter le dessein de l'auteur, nous avons préservé cet " effet d'étrangeté " en laissant sans explication tout ce qui se rapporte à l'Asie. en revanche, nous avons donné des explications pour ce qui concerne la civilisation occidentale et qui doit apparaître au lecteur français comme familier. C'était, nous semble -t-il, la seule façon de rendre cette opposition entre l'étranger et le familier qui est essentielle à la thématique du roman (la " faute ' de l'archéologue vient de ce qu'il a espéré trouver dans l'étranger, dans l'exotique, un substitut à ce qui constitue, pour lui, le seul entourage familier possible) [(1)].

parmi les références étrangères au lecteur arabe et, en principe, familières au lecteur français, nous trouvons l'allusion au " De viris " (p.114) : L'archéologue se souvient qu'un prêtre lui enseignait autrefois le latin dans ce texte. Il nous a semblé nécessaire d'expliquer dans notre traduction qu'il s'agit de l'ouvrage " De viris illustribus urbis Romae , (Les hommes illustres de Rome ") utilisé pendant des siècles comme texte de base pour l'enseignement du

(1) les mots relatifs à la civitisation égyptienne constituaient un problème insoluble. Dans Le texte Français,ils relévent du domaine de l'tranger. Comment maintenir cette appartenance danse la traduction arabe ?

latin en France. Ainsi, ce livre, et les souvenirs qui s'y rapportent, appartiennent, pour l'archéologue, à la partie du monde qui est la sienne, celle où se trouvent ses " racines ". Dans la mesure où la Séparation entre le familier et l'exotique est essentielle à la thématique du roman, dans la mesure où les noms d'objets et de lieux doivent être situés à l'intérieur de cette géographie binaire, il fallait absolument donner cette précision à notre lecteur : sinon il risquait un contre - sens profond.

Quand l'explication de références culturelles pouvait être glissée dans le texte, sans porter préjudice au style ou à la compréhension du texte, nous avons préféré ne pas recourir à un renvoi au bas de la page, renvoi qui généralement est gênant pour le lecteur, ou lui donne l'impression de lire un ouvrage technique. Ainsi " La Comtesse de Ségur " a été suivie de (célèbre romancière pour enfants) " Chateaubriand " de (célèbre écrivain français) " Compostelle " de (lieu de pélerinage). Autrement nous avons mis les notations en marge.

Si nous avons procédé, par moment, à l'ajout de certaines expressions ou segments par souci de clarté, nous avons, en revanche, opéré certaines omissions de mots qui n'auraient pas eu de sens, reproduits dans la langue cible. A la page 8 par exemple, nous avons rencontré le mot " Voilà " qui constitue à lui seul un énoncé; ce terme dans ce contexte n'a pas d'équivalent en arabe. Outre cette omission lexicale, nous nous sommes permis de ne pas traduire le Balé Gdé (p.80). Non seulement ce Balé Gdé ne

représente rien pour le lecteur arabe mais, de plus, il ne peut être reproduit phonétiquement en arabe, même en utilisant les trois accents, dans la mesure ou le son "é" est inexistant et que la grammeire interdit l'usage d'une lettre muette au début d'un mot. (C'est ainsi que la France doit se pronconcer farança et non frança).

le problème des connotations, nous a permis de mesurer la difficulté, pour le traducteur, de rendre dans son travail toutes les subtilités de la langue source. un mot comme *élément*, à titre d'exemple, a une charge connotative marquée dans le texte de **Beaussant**. Dans toutes ses occurrences, il conserve deux connotations fondamentales, à savoir les idées de " millieu " et de " fondamental ". Mais, en arabe, le même mot *élément* ayant la même acception conceptuelle, a dû être traduit, dans chacune des occurrences, par un terme spécifique. Ainsi *élément* qui figure à la P.20 " noyé dans l'élément vert " a été traduit par : noyé dans un lac de verdure. A la p.24 " Cette forêt sonore autour de moi ... C'est l'élément " a été traduit par : le premier élément. En revanche, à la p.27 " Des éléments si limpides et si durs, " le mot *élément* renvoyant à vestiges, au milieu donc décrit par le narrateur, a été traduit par : ruines.

Les images n'ont pas été, non plus, simples à traduire. De façon générale, le français conceptualise plus les images, les rend plus abstraites. L'arabe est une langue plus imagée. Nous avons essayé de ne pas trop nous éloigner de l'atmosphère qu 'a voulu

rendre Beaussant lorsqu'il à eu recours à des figures (bien qu'elles ne soient pas nombreuses dans le roman). Quelques exemples corroborent l'idée avancée. A la page 29 on lit " Les femmes sont des ombres " traduit par : comme des ombres. Ce recours à la comparaison pour traduire en arabe des métaphores est souvent nécessaire. Le narrateur à la p.17 décrit le visage de Mentouemhat en ces termes :

" **J'ai vu son pauvre visage noir, ratatiné, parcheminé ...** "

L'adjectif parcheminé ne peut se traduire en arabe que par : ressemblant à un parchemin.

" (...) **Cette descente de la nuit sur l'immobilité du** désert "

p.30 a été rendue par une image utilisée, généralement en arabe, pour décrire la tombée de la nuit : **Lorsque la nuit s'empressait de baisser son rideau sur le silence du désert.**

Dans certains cas, nous avons été amenée à forger une image, la traduction littérale étant impossible : c'est ainsi que " une durée fantastique " p.17 a été traduit par : les longs siècles étendus dans le temps.

Dans d'autres exemples, le probléme se situait au niveau lexical. Ainsi, à la p.55, le narrateur parle de " seins ronds comme des balles " que nous avons comparés, dans la version, à des pommes, image plus poétique pour le lecteur arabe.

Nous avons, une seule fois, rencontré une image en français qui a été rendue dans un style non imagé : u Seul importait le temps qui passait (...) *à ppri- voiser* ".Nous l'avons traduite, tout simplement, par : trouver une certaine harmonie avec le soir, la nuit.

Ce travail, bien que non exhaustif, nous a permis de cerner les difficultés que pourrait rencontrer tout traducteur dans son entreprise de traduction, et de montrer comment il nous a été possible de les sur monter.

Il nous a permis, également, de cerner les problèmes inhérents au texte de Beaussant. En effet, on ne pouvait traduire le roman sans une bonne compréhension du thème principal, thème des " racines perdues " qui régit en filigrane la structure syntaxique, sémantique et rythmique du roman.

Enfin, nous avons pu réaliser, grâce à ce travail, à quel point il est nécessaire pour traduire un texte littéraire, de maîtriser, non seulement la langue source et la langue cible, mais encore les règles qui régissent le genre littéraire dont il est question ici et de comprendre la spécificité du texte traduit à l'intérieur de ce genre.

BIBLIOGRAPHIE

I. Ouvrages concernant les problèmes de traduction

- Benjamin, w. *La tâche du traducteur,* Denël, paris, 1971.

- Delisle, J. *L'analyse du discours comme méthode de traduction*, Ottawa, Canada, 1984.

- Mounin, *G. Les problèmes théoriques de la traduction,* Gallimard, paris, 1963

Linguistique et traduction, Dessart et Mardaga, bruxelles, 1976.

- Seleskovithch D. et Lederer, M. *Interpréter pour traduire*, publications de la Sorbonne, paris, 1984

- Vinay J.p. et Darblenet J., *Stylistique comparée du francais et de l'anglais,* méthode de traduction, bidier, paris, 1975.

II. Articles concernant les problèmes de traduction

- *Etudes de Linguistique appliquée*, N °24, Déc. 1976, paris.

- *Le Français Moderne,* N °4, " La Traduction ", Hachette, paris 1980

- *Lanque Française,* N°51, " La Traduction " , Larousse, paris, 1981

III. Ouvrages de critique littéraire et de Linguistique :

- Ducrot, O. *Le dire et le dit, éd.* de Minuit, paris, 1984

- Genette, *G. Figure III*, éd. du seuil, paris, 1972

- Jakobson, *R. Essais de Linguistique Générale,* ed. de Minuit, paris, 1963.

- Johnson, M; & Lakoff, G., Les Métaphores dans la vie quotidienne, éd. de Minuit, 1985.

- Weinrich, H. *Le Temps*, Seuil, paris, 1973.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنانوليينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	إليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	الڤين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو– أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتزى	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوچيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٩٦٩ / ٢٠٠١





عالِم الآثار

نهضت كريستين يوسف إسكندر بعبء ترجمة هذه الرواية التى أعتبرها من أجمل الروايات وأنقاها فلسفيًا .

وليست الرواية القائمة على رؤية فلسفية إلا عملاً شائقًا ومثيرًا للوجدان وحافزًا للتفكير ، وإنما توفيقها يتأتى من المقدرة التى لا تعوز رواية فيليب بوسان على سرد حكايات يمكن أن تعتبر - على مستوى معين - مشوقة وجذابة وقادرة على استثارة فضول القارئ لمعرفة «ماذا حدث ؟» و«ماذا سوف يحدث ؟» فضلاً عن أنها - على مستوى آخر - قادرة على حفز التأمل فى القضايا الإنسانية الكبرى التى طالما شغلت - وستظل تشغل - عقول المفكرين ، كما تشغل فى الوقت نفسه - هموم صغار الناس وعامتهم ، حتى لم يكن فى مقدورهم أن يكسبوها صياغة فنية فلسفية .

هذه رواية تقيم تقابلاً أو تواجهًا بين نقيضين ناحية الخلفية السردية القصصية ، ومن ناحية الفكرية على السواء .

إدوار الخرا

